

الدكتور محمد رجب البيومي

حديث عن مصارع جبار

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي
عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

* * *

كان العباس بن الوليد بن عبد الملك يتوجه الى قصر الخلافة لمقابلة شقيقه يزيد بن الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين فرأى بباب القصر رجلا اسمر عملاقا ذا راس ضخم ، ومنكب عريض ، وان لحمه ليتكتل على جسمه ، فتتخيل حين تراه أنه قطعة هائلة من الجبل تجري فيها الروح وتدب بكيانها الحياة ..

فسأل في خشية عن هذا الاسمر المخيف فقيل انه فارس الصحراء هلال ابن اسعر فقال العباس ولماذا قدم الى امير المؤمنين ؟ فقال صاحب الحرس لقد علم الخليفة بغرائبه المدهشة فاحب ان يراه وكتب الى عامله فبعث به الى دمشق ليحقق مطلب امير المؤمنين .

فسكت العباس ولم يتكلم ثم تقدم في صمت حتى اخذ مجلسه ـ دون استئذان ـ في جوار اخيه ، وابتدأ يقول في تبرم ظاهر : لقد كنت يا يزيد تعيب على سلفك الوليد بن يزيد انقطاعه عن شؤون الخلافة وانصرافه عن المظالم الى جماعة من ذوي البطالة واللهو يشربون الخمر وينشدون الشعر ، فكيف تنصرف انت الى ما انصرف اليه الوليد ، وتبعث الى المدينة متصيدا شذاذ الافاق ، وصعاليك البداة لتقضي معهم يومك الطويل دون نظر الى ما يقع على كاهلك من اثقال وصعاب :

فابتسم يزيد بن الوليد في دهاء وقال يستعطف اخاه اراك لا تزال على دابك في ازدرائي وتهجيني: واني لااتحمل منك جميع ما تقول .. وقد ذهب مصرع الوليد بذكره ولكنك دائما تعيرني به وكأني ارتكبت حدثا هائلا حين اعلنت الثورة عليه ، وسعيت في مهلك مستهتر خليع .

فقال العباس في غضب : لن اغتفر لك هذا مهما اغتفره الناس ، فقد فتحت بثورتك الظالمة باب المروق والعصيان في بني مروان ، ولست آمن من ان ينتقض عليك في لحظة من اللحظات، فيجمع الى خلعك الكتائب والجيوش واذ ذاك تشرب من كأس ارغمت على احتسائها سواك .

فقال يزيد ملاطفا : رفقك يا اخاه فانا اعلم انك بايعتني مكرها غير طائع ولولا ما اضطرك اليه الجميع من مبايعتي لتفرقت الكلمة وتحزب الناس ، وانا اناشدك الله والرحم ان تعفو عما سلف ، فقد كفى ما كان ..

فاطرق العباس اطراقة الحزين ، ثم قال في حزن : لقد اضطررت امام الناس ان اتناسى جريرتك الشائنة .. ولكني مضطر الى نصيحتك بان تقلع عن ذوي البطالة واللهو ، وتنظر في اعمال الخلافة ومصاعب الدولة ، ليطمئن الى عهدك العرب والمسلمون .

فقال يزيد في ابتسام : ان عين الغضب نائمة يا عباس . علم الله اني اصل الليل بالنهار في استطلاع الشؤون ، وتصريف الامور ، حتى عرف العرب عني كل محمدة تمدح ، ومضى مثلهم الشارد يقول : الناقص والاشج اعدلا بني مروان ..

فتأوه العباس تأويهة متبرمة وقال : خدعتك الالفاظ يا يزيد .. ولقد كان من قبلك من الخلفاء يمدحون فلا ينخدعون ، بل ان معاوية بن ابي سفيان كان يسمع الثناء فيستشف من خلاله قوارص الهجاء ، ثم يميل الى الاغضاء .. وانت فيما ارى يغرك المديح الزائف والثناء الخداع .. يا يزيد .. لست اغشك ولكن انصحك .. واني اخوك .

فقال يزيد في سهوم : اتذكر لي شيئا اغضبك مني اليوم لنضعه على بساط النقاش ..

فرفع العباس راسه وقال هذا الصعلوك الذي بعثت اليه، لتنصرف به عن شؤون الخلافة فيسمعك القصص وينشدك الاشعار .. وكأنك صاحب رواية واخبار لا مصرف دولة وارواح ..

فنظر الخليفة الى اخيه ـ وهو يحاول ان يكتم ما اثار حديثه في نفسه من امتعاض ثم قال في أدب ودود :

ان الرجل الذي تعنيه فارس بطل من فرسان الصحراء ، وقد نقل امير المدينة الي عنه من غرائب القوة وعجائب البسالة ما احببت به أن اراه . وانا لا اصاحب المخنثين والخلعاء او استطيب الكؤوس المترعة من الشراب او استقدم المحصنات والمنتهكات كما كان يفعل الوليد .. فماذا تقول في خليفة يعلم عن احد رعاياه ضروبا من الفتوة والبطولة فيستدعيه ويعرف له حق التضحية والاستبسال؟

فتراجع العباس متاثرا .. ثم قال لئن كان ما تقول من امر الرجل فاني احب ان استطلع انباءه معك .. فأرى اي خارقة نادرة ياتي بها هذا المصارع العملاق ..

فتهلل وجه الخليفة في بشر ثم صفق بيده . واذن لهلال في الدخول لساعته ومثل الفارس بين يديه في ثبات واعتداد ..

فقال يزيد في تخابث : ما اندفاعك الي الشر يا هلال؟ فقد اثرت النفوس واضرمت الاحقاد ، فابتسم العملاق الضخم، فظهرت اسنانه متراصة حادة كانها تشي بالنهش والافتراس ، وقال في صوت اجش : اي شر تعني يا امير المؤمنين ؟

فقال يزيد مسرعا ، لقد نقل الي امير المدينة انك هجمت على العبد الرومي شحيم ووضعت راسه بين ابهاميك فسقط على الارض مغشيا عليه في ذهول ..

فنظر هلال نظرة فاحصة ، وقال او لم يسرد عليك الامير قصة شحيم بالتفصيل ؟ علم الله انني كنت راغبا عن الصراع .. ولكن الوالي قد اضطرني اليه ، فاكرهت على المبارزة وانتقمت للعرب من هذا الجبار .. فتبسم العباس بن الوليد ، وقال لهلال : سالك امير المؤمنين ان تذكر كل شيء بالتفصيل ، فكيف تميل الى الاجمال كيف رايت شحيما ونازلته بمشهد من الناس ..

فقال هلال في اعتداد .. لقد قدمت الى المدينة ذات مساء فلم ازل اضع عن ابلي وعليها احمال التجار حتى اخذ بيدي ، وقيل لي : اجب الامير ، فقلت لهم ويلكم ابلي واحمالي ، فقيل لا باس على ابلك واحمالك ، وانطلق بي حتى ذهبت فسلمت ، ثم قلت للوالي جعلت فداءك ابلي وامانتي ، فقال نحن ضامنون لها حتى تؤديها اليك ، قلت فما حاجة الامير الي ؟ فقال ارايت هذا الرجل الاصغر ، واشار الى انسان جواره ، فما رأيت يا امير المؤمنين قط اشد خلقا منه ولا اغلظ عنقا ، وما ادري اطوله اكثر ام عرضه .. ثم تابع الوالي يقول ان هذا العبد ما ترك بالمدينة عربيا يصارع الا صرعه ، وقد بلغني عنك قوة ، فاردت ان يجري الله صرع هذا العبد على يديك فتدرك ما عنده من اوتار العرب فقلت للامير اني تعب نصب جائع ، فان رأى الامير ان يدعنى اليوم حتى اضع عن ابلي واؤدي اماناتي واريح يومي هذا ثم اجيئه مع الغد فليفعل ، فقال لاحد اعوانه ، انطلقوا معه فاعينوه

ففعلوا جميع ما امرهم به وبت ليلتي تلك باحسن حال شبعا وراحة وصلاح امور ، فلما كان من الغد قدمت وشددت بعمامتي وسطي ، وجاء العبد فجعل يدور حولي ويريد ختلي وانا منه وجل ، ولا ادري كيف اصنع به ثم دنا قريبا فشج جبهتي بظفره شجة نالت مني اصعب منال فغاظني ذلك ، فجعلت انظر ما اقبض منه، فما وجدت شيئا اصغر من راسه ، فوضعت ابهامي في صدغيه ، واصابعي الاخرى في اذنيه ثم غمزته غمزة صاح منها تتلتني تتلتني فصفق الحاضرون من شهود الاعراب ووجهاء المدينة ، وقال الامير مبتسما ، اغمس راس العبد في التراب ، فقلت له : ذلك علي ، فغمست والله راسه في الثرى ووقع مغشيا عليه حتى ضحك الوالي وامر لي بجائزة وكسوة وانصرفت ..

فضحك يزيد مرتاحا وقال في احتيال : كانك يا هلال تسلك مسالك صعاليك العرب من قطاع الطريق ومقتالي الارواح .. فتعيد سيرة تابط شرا وعروة ابن الورد ومالك بن الريب .

فتجهم هلال تجهما صار به وجهه قطعة من الليل وقال في غضب :

لست صعلوكا ولا قاطع طريق يا امير المؤمنين وانما انا اعرابي اسير وراء ابلي ، واذهب بما عليها من السلع الى اصحابها فاعيش باجر النصب والتعب والكلال ..

فقال العباس ان مثلك في قوته وباسه لا بد ان يتجبر على الناس ، فيخيف الآمن ويقطع السبيل في صحراء تيهاء ذات منادح وشعاب ..

فنظر هلال نظرة الواثق المعتز وقال : شهد الله لم ابدأ احدا بشر ما دون ان اجد منه العدوان .. وكم مر بي من اناس فاستخفوا بمرقدي وانهالوا علي بالسياط .. واذ ذاك اعمد الى الانتقام .

فقال يزيد في عجب : يضربك الناس بالسياط .. ومن يقدر على ذلك ؟ فاجاب هلال في ثبات : ولعينيه بريق آخذ كاد يفزع له يزيد في مجلسه لولا ما حوله من حراس يمتشقون السيوف ويصوبون الرماح .

كنت يوما بالصحراء وقت الظهيرة وقد احتدمت الهاجرة احتداما يشوي الوجوه ويكوي العظام فعمدت الى عصاي وطرحت عليها كسائي واحتميت بالظل ، فمر بي رجلان احدهما من بني نهشل والاخر من بني نعيم وهما اشد بني تميم باسا وعراما ومعهما انواط من تمر هجر ، فحين وقع نظرهما علي ناديا : يا راعي الابل اعندك شراب تسقينا قلت وانا نائم لا اتحرك ، عليكما الناقة البيضاء فانيخاها فان لبنها كثير فاشربا ما بدا لكما ، فقال احدهما : ويحك ايها العبد انهض فأت باللبن فقلت اذهبا لتشربا ، قال احدهما : انك يا ابن اللخناء لغليظ الكلام قم فاسقنا ثم دنا مني وجاء الاخر فقال مثل قوله ودنا فلا

والله ما اكترثت، وتقدم احدهما فاهوى علي ضربا بالسوط فتناولت يده وانا نائم ورميتها تحت يدي ، وضغطتها ضغطة صاح منها صارخا ونادى صاحبه ادركني فقد قتلني .. فدنا يصنع ما يصنع فاخذت يده وفعلت بها ما فعلت باختها ثم اخذت برقبتيهما اضكهما صكا لا يستطيعان ان يمتنعا منه فقال احدهما انت هلال ولا يفعل ذلك سواه . قلت انا هلال فطفقا يبكيان فرحمتهما وتركت لهما العنان ..

فضحك يزيد بن عبد الملك ثم نظر الى اخيه العباس في تطلع وقال يخاطب هلالا والله لجدير بك ان تسمى اسد الصحراء . ولكن ماذا تصنع بها اذا طال عليك النهار ، ولج بك الصمت فلم تر من تأخذ معه بأطراف الحديث ..

فقال هلال في ادب : ان الشعر رفيقي المؤنس يا امير المؤمنين فانا احفظ القصائد الطويلة واتلهى بانشائها اذا انفردت دون الناس .

فقال العباس في عجب : يا سبحان الله . ايمكن ان يحفظ هذا الاصم الاصلد رقائق الاشعار وطرائف الاراجيز .

فنظر اليه هلال نظرة ناقمة كاد العباس يتحسس منها ريح الخوف لولا انه في مجلس امير المؤمنين ثم قال في اعتداد : احفظ الشعر ايها الامير وانظمه فيذيع بين الناس ..

فقال العباس في دهشة : وشاعر ايضا .. هذا شيء عجيب .. الم يقل امير المؤمنين انك تسلك مسلك عروة بن الورد وتأبط شرا ومالك الريب وكلهم شعراء .

فرد هلال في حزم : اسلك مسلكهم في الفتوة والبسالة ونظم القصائد ورواية الاشعار ولا اسلك مسلكهم في السطو والاغتيال ونهب الطريق ..

فضحك يزيد وقال هو ما تقول يا هلال فاسمعنا بعض ما نظمت من المديح ..

فاطرق هلال رأسه وقال في ادب : اصدقك القول يا امير المؤمنين اذا اعلنت اني لم انظم بيتا واحدا في المديح فلست علم الله من الذين يتخذون الشعر مطية كسب وآلة استجداء ولخير لي ان اكون ابكم اعجم من ان اجعل لساني منكسرا ذليلا يستجدي للمال وينكسر للعطاء ..

فرفع العباس رأسه في بشر وصاح حياك الله من شجاع ذي همة واعتلاء .. علم الله ما تأثرت بشجاعتك كما تأثرت بنفسيتك .. ولانت خير من يستدعيه امير المؤمنين من اقاصي الارض فيجزل اليه الحباء .. ويفسح له المكان .

فضحك يزيد ثم قال يخاطب العباس : كأنك لم تعد تزعم انني استدعي شذاذ الافاق وانهج نهج المتبطلين .

فقال العباس ان كان زائروك من معدن هلال . فاهلا بالزائرين .

فرفع امير المؤمنين رأسه الى هلال وقال لقد اسديت الي ايها الرجل يدا بيضاء اذ كنت سببا في ارتياح اخي العباس وانشراحه وساكافئك بما لا يندرج في حسبانك من الاعطيات .. فاهلا بالعباس ومرحى برضاه ..

قال العباس في ابتسام وديع : اشهد لقد سررت بمجلس امير المؤمنين .

فقال يزيد متهللا ، ازد سروره يا هلال وساعفيك من رواية الشعر ، وانشاده كما تحب ، فآت لنا من نوادر بسالتك ، ولن يطول بك الحديث .

فشخص هلال الى يزيد في اعتداد ثم مد بصره الى العباس كمن يشكوه في صمت دون ان يبين .. واندفع يقول :

ذهبت مع صديق لي الى خيام بكر بن وائل وقد لغبنا وعطشنا ، واذا نحن بفتية شباب عند بئر لهم وقد ردت ابلهم ، فاستهولوا مرآي واستفظعوا خلقي وقامتي وقام رجلان منهم فقالا : يا عبد الله هل لك في الصراع فقلت في حياء : انا الى غير ذلك أحوج ، فقالا وما هو ؟ قلت الى لبن وماء فاني لغب ظمآن ، فقال احدهما لست بذائق من ذلك شيئا حتى تعطينا عهدا لتجيبنا الى الصراع اذا شبعت ورويت فقلت في هدوء أنا ضيف غريب والضيف لا يصارع مضيفه ورب منزله ، وانتم مكتفون من ذلك بما اقول لكم فاعمدوا الى اشد فحل في ابلكم واهيبه صولة والى اشد رجل منكم ذراعا فان لم اقبض على هامة البعير وعلى الرجل فاعلموا انكم صرعتموني اذا لم افعل ، وان فعلته فان الصراع مع أحدكم ايسر من ذلك .. فعجبوا كثيرا من قولي .. ثم اشاروا الى فحل في ابلهم هائج صائل فاتيته واخذت بهامته وضغطتها ضغطة ثقيلة جرجر الفحل منها واستخذى ورغا ثم قلت من شاء فليمد الي يده فادخلها في فم هذا الفحل .. فلا والله ما تجرأ احد وصاح الناس تنكبوا هذا الشيطان فما سمعنا هذا الفحل يجرجر قبل اليوم ..

فنهض العباس يقول في ابتسام تنكب يا امير المؤمنين هذا الفحل فما خلع قلبي لحديث كحديثه .. ثم استأذن ومضى فصفق يزيد فاحضر صاحب خزانته وامره ان يحمل هلالا من اعطياته ما يطيق .

فتبسم خازن المال في ادب وقال مخاطبا يزيد لئن حملته ما يطيق ، ليحملن جميع ما في الخزانة يا امير المؤمنين ..

فعجل هلال يقول متضاحكا لا باس على الخزانة يا امير المؤمنين فساحمل منها دون ما اطيق ، وانصرف باسم الثغر ظاهر الارتياح ..

المنصورة ـ مصر — محمد رجب البيومي


احمد حسين الطماوي

مرآة الحسناء

بقلم احمد حسين الطماوي

* * *

مرآة الحسناء اسم مجلة نسائية اصدرها في القاهرة الصحفي القديم سليم سركيس وجعلها مرآة تنظر فيها الحسناء الشرقية لتقوم بمادتها ما اعوج فيها ، وبرخص الفساد في عينها ، وتنهض على مبادىء قويمة . واذا كانت المراة قد عالجت مظهرها ، فانها لا تزال في حاجة الى اصلاح مخبرها . لذلك فالمجلة توجه النصح اليها لعلها تتجاوب مع اول نقد يوجه لها ، فتروع من هول الصورة التي هي عليها ، وتتبرم ساخطة على ما هي ماضية فيه ، وكائنة به ، وتنحى ما ران على جوهرها . ان تحرر المراة من كل اصيل لا يعتبر خلاصا لها ، واستجابتها لنزواتها ومجافاتها لكل موروث ، وحرصها على كل جديد لا يعني انها حرة . ولكن تحرر المراة الحقيقي فانما يكون عندما تدرك مسؤوليتها وتتبصر بحقيقتها ، وتتصرف في ضوء هذه المعطيات .

ومرآة سركيس تنظر فيها الفتاة لا لترى وجهها الجميل ، ولكن لتبصر اعماقها وتدرك ابعاد نفسها ، وتتعرف على ما تجهله من امورها ، فتعدل من سلوكها ، وتسمو فوق حاجاتها العاطفية ، وتعمل على رسم صورة اجمل واوفى لها بما تستفيده من توجيهات المجلة . « فمرآة الحسناء » تؤثر في روحها قبل ان تبين لها ما يحتاجه وجهها ، وتستميلها الى الفضائل قبل ان تجعل يدها تمتد الى الاصباغ والمساحيق .

★ ★ ★

مجلة « مرآة الحسناء » نصف شهرية صدرت في نوفمبر عام ١٨٩٦ ، وجعل سركيس صاحبة امتيازها سيدة تدعى « مريم مزهر » وهو اسم وهمي ، والسبب في تسمية صاحب المجلة الحقيقي لهذا الاسم المستعار يرجع الى ان السلطات العثمانية كانت تحول دون دخول صحفه الى ممالك الدولة لما فيها من طعن ضد الخلافة العثمانية حتى قال عنه السلطان عبد الحميد « انه خائن للدولة والامة وحكم عليه بالاعدام » فرأى ان ينسب امتياز مجلته الى « مريم مزهر » ليتسنى لها دخول الاقطار الواقعة في دولة السلطان ، وكان له ما اراد . والغريب ان هذه المجلة تقع في فهرس الدوريات العربية التي تقتنيها دار الكتب تحت رقم ١٩٧ دوريات باسم مريم مزهر ، رغم ان سركيس افصح عن حقيقة الامر في عدد مارس ١٩٠٧ من مجلته « سركيس » وفي عدد اكتوبر ١٩٢٤ من مجلة « المراة الجديدة » لصاحبتها جوليا دمشقية وبين الاسباب التي دعته الى ذلك .

وقد كان سركيس يرمي ايضا من اطلاق هذا الاسم النسائي على مجلته ، الى تشجيع المراة الشرقية على الكتابة في الصحف والمجلات . ذلك ان حياء الشرقيات يحول دون ظهورهن على صفحات الجرائد وكانت الواحدة منهن تقول « لتبدأ واحدة قبلي فاتبعها » لذلك كان سركيس يكتب في « لسان الحال » بعض المقالات بتوقيع « مريم مزهر » .

ولكن كيف تلقت المجلات « مرآة الحسناء » في حينها ؟

ان المجلات المعاصرة لم تقتنع بان مريم مزهر هي صاحبة المجلة ومحررتها ، ولم يخف على اصحابها اسلوب سركيس وطريقته في الكتابة وتفننه في اخراج المجلات ، وتجديده في الابواب والموضوعات التي تشد القراء وتجذبهم اليها ، فقالت مجلة المقتطف : « تلقينا العدد الاول والثاني من مرآة الحسناء ، وهي مجلة ادبية عائلية فكاهية يحررها ويديرها حضرة الكاتب المتفنن سليم سركيس » وقد سارع سركيس في العدد الرابع من مرآة الحسناء الى نفي هذه الانباء على لسان « مريم مزهر » وامعانا في اخفاء اسمه ، انتهز فرصة مقتل شاب لبناني يدعى اسكندر مزهر وصور للقراء انه شقيق صاحبة المجلة وبين فجيعتها في مصرع اخيها . وقد صدق القراء الخبر فارسلوا برقيات التعزية لصاحبة المجلة لمشاركتها في احزانها .

ووأصلت المجلات الكتابة لتكشف للجمهور حقيقة الامر فبعثت مجلة « الثريا » في عددها الصادر بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٨٩٦ بكتاب مفتوح الى صاحبة المجلة جاء فيه : « ... اني ارى من وراء ستر مخباك يدا خشنة تخط لك سطورا ملؤها تحامل على بنات جنسك وازدراء بهن ومما يثبت لي ما تعاملين به نفسك من صفة التذكير احيانا من غير قصد منك » وهكذا سارعت المجلات في اذاعة الخبر الصحيح ، ونبهت القراء الى ان وراء هذا الاسم النسائي رجلا كبيرا ، وعلى اية حال فقد اشادت الصحف والمجلات بقيمة المجلة وضخمت من فائدتها ، واعلت من قدرها ومما قالته صحيفة « الرائد المصري » في عددها الصادر بتاريخ ٣ نوفمبر ١٨٩٦ : « مهما كانت صفة صاحب او صاحبة هذه الجريدة الجديدة فانها تدل على أن لادارتها قوة في توليد المواضيع المختلفة وقد اطلعنا على العدد الاول فاذا به على نسق الجرائد الافرنجية التي من نوعها ، وهي تكثر من ذكر الحب والزواج ولكن الحب الشريف الواجب أن يكون مما يدل على ان يد المحرر او المحررة مدفوعة بعواطف سكرى بهذا الحب الطاهر » .

وكان سركيس يتلقى كل ما يصل الى المجلة باسم مريم مزهر من رسائل وحوالات باعتبار انه وكيل ادارة المجلة ، وقد ساعده في هذا يوسف سابا (باشا) وكيل مدير البريد بعد أن اطلعه على الحقيقة ، وصدر من هذه المجلة (٢٣) عددا وتوقفت .

ومن عجيب الصدف أن شابا من البرازيل يعشق مريم مزهر على السماع وعرض عليها الزواج في خطاب ، واهم شيء ذكره سركيس في هذا الشان قوله : « وربما جاء زمن يذيع فيه غيري سر اسماء كاتبات كثيرات يظن الناس اليوم انهن موجودات حقيقة ، واذا كان لهن حقيقة وجود فهناك سر ذلك ان الاسم اسم امراة والعمل عمل رجل » .

ومما يجدر ذكره ان الاستاذ انور الجندي اشار في كتابه « صفحات مجهولة من الادب العربي المعاصر » الى كتابات كان يحررها رجال وتنسب الى اسماء نسائية ، ومن ذلك ما كتبه التابعي بامضاء « حكمت ف » في مجلة روز اليوسف عام ١٩٢٤ ، وما دبجه يراع حافظ نجيب باسم « وسيلة محمد » وغيرهما وهذه الامثلة تجعلنا نعيد النظر في الادب النسائي لمعرفة الدخيل من الاصيل .

مرايا المجلة او ابوابها

فاذا تطرقنا الى ابواب المجلة او مراياها الفينا بابا باسم مرآة القرائح وكان ينشر فيه محاسن الاداب ، وباب مرآة الكتاب ليذيع من خلاله اعمال المؤلفين ويناقشها ، وباب مرآة تبادل الافكار ويعقد فيه مناظرات وموازنات لمختلف الاراء ، وباب مرآة العرائس والحفلات وهو باب جديد في صحافتنا الادبية والنسائية ، وقد نجد في الصحف الاخرى حديثا عن الافراح ، ولكن لا نجد بابا ثابتا في مجلة يتناول هذا الغرض . وكان يصف فيه اهم حفلات الزواج والمراقص واندية الطرب في المدن العربية الكبرى ، ويتوسع في وصفها وذكر من حضروها من الجنسين ولا يخلو حديثه من الغمز واللمز فينتقد اداب السلوك في هذه الحفلات ، ويمتد الانتقاد ليشمل الملابس وموائد الطعام . وقد عرض لاحتفالات تمثل الاسر المسيحية واليهودية بزواج ابنائهم ، ويرينا في هذا الباب مختلف العادات والتقاليد وكثرة النفقات والهدايا والمظاهر ، والملابس الفاخرة التي ترتديها النساء للفت الانظار وجلب العيون حولها . وهذه الاحاديث تعتبر دراسة اجتماعية ميدانية لظاهرة كانت قائمة ولا تزال الى يومنا هذا ، وقد اهتم الدارسون بهذا المظهر الاجتماعي وافاضوا في الحديث عنه لاهميته . ولم يقف سركيس عند حفلات الزواج ، وانما تجاوزها الى ذكر الحفلات العامة فوصف احتفال جمعية نهضة النساء الخيرية في بيروت (عن طريق مراسل له) وحفلة الجمعية الاسلامية وعرض للمحاضرات التي القيت في هذه المناسبة وناقش مضمونها ، وصور بقلمه البليغ الليلة الراقصة التي اقامتها زوج كرومر في الوكالة البريطانية والتي ظهرت في الحفل وقد « كلل شعرها المرتب تاج من الماس الثمين البراق وازدان عنقها بعقد لؤلؤ يقال ان قيمته لا تقل عن ١٦٠٠ ليرا » وسرد اسماء الذين حضروا هذه الحفلة من الوجهاء والاعيان وقناصل الدول والسفراء والوزراء . وهذه المادة التي اثبتها في مجلته تدخل في دراسة الادب والتاريخ والاجتماع .

وكان سركيس يهتم بملابس النساء في باب « مرآة الازياء » فيصف كل جديد في « المودة » ويقارن بين الازياء الفرنسية والانجليزية ، والتعديلات التي تتم على الزي عندما ينتقل من بلد الى اخر ، وينتقد الشرقيات عندما يقلدن الاوروبيات دون اجراء تغيير على الازياء مما جعل للمجلة قارئات كثيرات . وقد قال سركيس عن مجلته « وكانت لها منزلة لدى السيدات لانني افردت فيها بابا لوصف ملابسهن والازياء وصفا تقصر عنه ابرع الخياطات» وقد صدق فيما قال .

ومن الابواب الاخرى في المجلة النبذ التي كان يكتبها عن شهيرات النساء، ومشاهير الرجال وباب اداب السلوك والصحة والجمال . وكل هذه الابواب تتعلق بالمراة وتتناول قضاياها الحضارية وسعيها الى التحرر .

وسركيس يعرف كيف يجذب القارئات الى مجلته، ويقربهن منها ، فيزعم ان الفتاة الجميلة هي التي تحرص على النظر في المرآة لتشاهد محاسنها ، اما الفتاة القبيحة فانها تخشى الوقوف امام مرآتها . واخيرا يقرر ان « كل فتاة لا تشترك في مرآة الحسناء ، لا تكون بالطبع حسناء لانها قد تخاف ان تطالع فيها ما يشعرها بجهلها اما الفتاة الادبية المهذبة فانها تقبل كل الاقبال على هذه الجريدة

لانها ترى في صفحاتها مثال الادب الكامن في قلبها وعقلها » .

وبهذا الاسلوب الظريف والساخر يستحث كل فتاة على اقتناء مجلته والنظر فيها حتى لا تصبح في عين نفسها غير حسناء ، وتخشى اتهام سركيس لها بالقبح . ولكنه يهدىء من روع الانثى غير الجميلة ، ويهون من وقع حديثه على قلبها وسمعها بتحسين قصده من كلامه بتوجيه نداء الى كل حسناء في آدابها وليس في وجهها فقط على اقتناء مجلته :

وواضح ان هذا الحديث ليس كله دعاية او اعلانا عن « مرآة الحسناء » ولكن الغاية منه ان تزهو المرأة بمعارفها لا بجمالها ودلالها ، وتسمو بذكاء عقلها لا باتباع عواطفها وتوهج اشواقها ، وتقوى بسحر خيالها لا بسحر عينيها وبارق ثغرها ، ويتصل هذا الكلام بتهذيب نفوس القارئات ودعوته لهن بالتمسك بالفضائل ومقاومة الانحراف وليس عبثا ما ذكره في مجلته عن العقوبات التي كان ينزلها القائمون بالامر في مصر القديمة بسمل عين الرجل الخائن، وعند الرومان بجدع انف المرأة الخائنة ، ونشر ما نظمه طانيوس عبده في هذا الشان :

فلو وصلت شرائعهم الينا على ما نحن فيه من المجون
لاصبحت النساء بلا انوف واصبحت الرجال بلا عيون

ولاجل هذه الغاية الاخلاقية وتمامها فانه يدعو الادباء ان يوجهوا مؤلفاتهم الى تهذيب النفوس والارتفاع بها ، وقد انتقد رواية « مروءة الغانيات » التي الفها اسكندر دوماس وعربها شكري يوسف الخوري . لان مؤلفها اكثر من وصف مشاهد العشق والغرام ، ورأى ان معظم الروايات الفرنسية لا تخلو من أن الكونت فلان احب زوجة فلان . « مع ان الاليق بتهذيب الاخلاق ان يكون الحب بين غير المتزوجين ، ولكن كتاب فرنسا يرغبون المواضيع المهيجة وقد لا تكون دائما مرضية للمتهذبات ». ولعل كاتب الادب الجنسي الفاضح يتورع عما يكتب ، ويعرف ان ما يكتبه ليس ادبا هاديا هادفا يعمل على اصلاح الفساد وتلطيف الشمائل والخصال .

وعلى طريق دعوة الانثى للتمسك بالاداب والفضائل يذكرهن بهدية البابا التي يمنحها لاحدى النساء الكريمات المتازات ، المتعلقات بالدين والحياة الروحية .

وقد توسع سركيس في انتقاد المرأة ، وبين خطر اهتمامها بالمظاهر اكثر من الحقائق والدخائل ووجه اليها اللوم لاهمالها عقلها ، حتى ان بعض النساء انتقدن كتاباته في هذا المجال .

ويمضي الرجل في تعليم الفتاة الشرقية الاداب الاجتماعية ويحتال عليها في تلقينها هذه الاداب التي تعلي من قدرها في مرحلة دقيقة من حياة نساء ذلك العصر الذي يعتبر فترة تحول المرأة من الجمود الى التحرر ، وفي مثل هذه الفترات قد تتمادى المرأة في تصرفاتها وتطلعاتها بدعوى الحرية ، ومشاركة الرجل في كل ما يقوم به من أعمال ، ومجاراته في كل شيء .. الى اخر ذلك. ويلتفت سركيس الى نقطة نفسية وعضوية ولها علاقة بوضع المرأة في الهيئة الاجتماعية فيربط بين الضحك بصوت مرتفع وتجعيدات الوجه (او بين الضحك وجمال المرأة) فيشير عليها بالا تستغرق في الضحك بصوت صاخب (وهي فتاة) لان الضحك يوسع الفم ويصغر العين .. والعين الصغيرة غير جميلة والفم الكبير قبيح » . ويذكرها بقوانين الجمال في كتب الانجليز التي تقضي بأن تبتسم الفتاة لا ان تضحك ، واذا ضحكت فلتضحك بعينها لا بفمها . وسواء اصدقت هذه النظرة السيكولوجية والبيولوجية ام لم تصدق ، فان سركيس كان يقصد الى احتشام المرأة وعدم تبرجها ، وخروجها على المألوف من العادات الشرقية .

المحادثات الصحفية

وقد اجرى سركيس في هذه المجلة عدة احاديث مع مشاهير العصر من النساء والرجال في الباب الذي اعده لهذا العمل واطلق عليه « مفاوضة هذا العدد » . اما الذين تفاوض معهم او سجل آراءهم ، قبل ان يشيع هذا اللون في الصحافة العربية فمنهم العالم مثل شبلي شميل ، والشاعر مثل احمد شوقي ، والمترجم مثل سليمان البستاني ، والطبيب مثل امين الخوري ، والاميرة مثل نازلي فاضل .

وكان ينتهز الفرص لاعداد هذه المقابلات ، واجراء المفاوضات ، ولا يبالي بمشقة السفر في سعيه وراء هؤلاء حيث تكون اقامتهم. فعندما زارت الشاعرة وردة اليازجي الاسكندرية ذهب الى لقائها ، وحين قدوم السيدة مريم قرينة اسكندر فرج الله طراد المحامي من الاستانة توجه اليها في الاسماعيلية ليسألها عن حقوق المرأة العثمانية بمقتضى قانون الدولة ، والتي صرحت بـ « ان الحرية الاساسية المعطاة للمرأة في الشريعة الاسلامية تزيد على حرية المرأة الغربية » . وفعل نفس الشيء عند مجيء سليمان البستاني من الاستانة ليقيم في القاهرة . وهكذا لم يقصر في اداء واجبه الصحفي او الادبي او الاجتماعي لتنويع مواد مجلته والرقي بها .

وقد كشف سركيس اشياء جليلة وهامة في هذه اللقاءات تهم مختلف الطوائف ومنهم رجال الادب ، ففي حديثه مع وردة اليازجي يوضح لنا ان هذه الشاعرة نظمت الشعر وهي في الثامنة عشرة من عمرها ، ويذكر علاقتها بكتاب عصرها من امثال السيدة « كاتبة بطرس» و « عائشة التيمورية » و « نازلي فاضل » وقد وصفت السيدة وردة مجلس أبيها ناصيف اليازجي وصفا دقيقا يعطينا صورة حية لبعض نواحي حياة هذا العالم الكبير قالت : « كان يجلس على مرتبة ، والكتب منثورة من حوله ودواته فنجان زجاجي في علبة خشبية بسيطة وامامه

منقل النار وادوات القهوة وعلبة الدخان والشبق ممدودا وعدة من هذا النوع الى جانبه ، وكان لا يسمح لاحد ان يكنس غرفته خوفا على أوراقه المنشورة في كل مكان . وكانوا يقولون له كيف تقيم وحدك كل النهار في هذه الغرفة فيجيب « كيف هذا ومعي جماعة الشعراء » .

وفي حديث آخر مع سليمان البستاني مترجم الالياذة ، بين لنا لماذا قام هذا الشاعر بترجمة اشعار هوميروس ؟ والسبب كما جاء على لسان البستاني ان العرب ترجموا علوم اليونان ولم يترجموا شعرهم الذي يمثل اخلاقهم وتاريخهم . وفي هذه المفاوضة القى البستاني ضوءا كاشفا على عمله الكبير الذي كان يتهيأ له ويعده للظهور ، وقد نشر سركيس في مجلته عدة مقاطع من الالياذة قبل ان تطبع ويقرأها الناس ، فكان هذا بمثابة سبق لدبي من ناحية واعلان عن عمل جليل من ناحية اخرى .

على ان سركيس الذي أجرى احاديثه مع هؤلاء المشاهير لم يفته ان يفاجيء القراء بمحادثات فكاهية تكشف عن بعض نقاط الضعف في المجتمع وتعمل على تلافيها ، ومن هذا الحوار الذي أجراه مع الاوسطى ابراهيم العريجي الذي ينتقد فيه الاسرة التي تترك أولادها في الشوارع يلعبون ويمرحون ويتعرضون للاصابة من عجلات العربات ، ويوجه العريجي نقدا اخر للحكومة لضيق الطرق وبروز خطوط الترام مما يعطل عربته عن السير و « الحكومة صماء » .

الادب والفن

ومع ان « مرآة الحسناء » كانت تهتم في المقام الاول شؤون المراة ، وتعنى بقضاياها ، وتعلن ما يعتمل في طواياها ، وتقدم لها الادواء الناجعة ، فانها لم تغفل الاداب والفنون ، فجابت ميدان القصة ، ونشرت رواية «قلب المراة » من تاليف عقيلة هنري ود التي تصور فيها عواطف امراة سيطر عليها الشك فراحت ضحيته . كذلك كانت المجلة تزين صفحاتها بمنتجات شعرية من الشعر القديم والحديث لتفكه به النفس ، وتحرك من خلاله الخاطر ، وتدل على حسن الاختيار ، ودقة الذوق. فقد نشرت المجلة قصائد لنجيب الحداد وشوقي وحافظ وطانيوس عبده والياس فياض ، بل اننا وجدنا فيها قصيدة من نظم حافظ ابراهيم بعث بها الى محمد المويلحي ليست مثبتة في ديوانه الذي جمعه احمد امين والابياري ومطلعها :

اوشك الديك ان يصيح ونفسي   بين هم وبين ظن وحدس

والقصيدة احدى خمريات حافظ ، وتمثل احد جوانب ادبه وشخصيته .

ولا يفوت صاحب مرآة الحسناء ان يعرض للفنون المسرحية في مصر ، فيتناولها ويوجه اليها الانتقاد الذي هو بمثابة النصيحة والارشاد ، فقد عاب على اصحاب المراسح تمثيل الروايات الحزينة التي تكثر فيها المواقف الاليمة ، والمشاهد الدامعة . بينما سكان مصر لا يلذ لهم الا الروايات التي تفجر ضحكاتهم . وهو انتقاد يدل على تفهمه للروح المصرية المحبة للمرح والفكاهة والطرب والسخرية . ولكن لا يعني هذا ان المصريين لا يعرفون المواقف الجادة ، ولا يهتمون بالامور الهامة . واذا كان في آدابهم قدر من الفكاهات والنوادر التي تعمل على صفاء الحس ، فان في تاريخهم الانتفاضات الكبيرة ، والثورات العظيمة ، والحروب الدامية .

وتشيع في المجلة روح الفكاهة المتمثلة في كثير من مادتها وابوابها ، وهي صفة لازمت سركيس ، وصاحبت مجلاته التي اصدرها طيلة حياته ، واننا عندما نطالع مجلات سركيس نحصل على الفائدة ، ونحس بالمتعة في نفس الوقت ، وهي مزايا جمة قلما تتيسر عند كثير من الكتاب او الصحفيين ، وليس كل اديب ـ مهما كان على قدر من العلم والتمكن ـ عنده القدرة على خلق الفكاهة واشاعة المرح ، وابداع النادرة التي تسري عن خاطر القاريء ، وتطربه ، وتجدد نفسه . ومن الفكاهات التي اوردها سركيس تحت عنوان « في اللوكاندة » حوار بين والد وولده :

الولد : علمتني يا ابي ان اضع قطعة واحدة من السكر فقط في فنجال الشاي واراك الان تضع ٥ قطع .

الوالد : تفعل ذلك في منزلنا اما آلان فنحن في اللوكاندة خذ من القطع قدر ما تريد .

او هذا الحوار بين شاعر ومحرر :

شاعر جديد : ماذا اعمل لاصير شاعرا عظيما .

محرر الجريدة : أول كل شيء يجب ان تموت لان جميع الشعراء العظام ماتوا .

الاعلان

وانه من واجبنا ان نقف عند شيء له اهميته الكبرى في الصحافة وهو « الاعلان » عن سلعة مثلا . والاعلان له اشكال مختلفة ، ولكن اكثر الصيغ ذيوعا واستعمالا في الاعلان عن شيء هو استخدام فعل الامر في حث الناس على اقتناء شيء بعينه او الاستمتاع به وتفضيله على سواه ، وقد تطور الاعلان ومر بمراحل كثيرة اخرها ما نشاهده في الاذاعة المرئية عندما نرى ـ احيانا ـ اثنين يتحاوران ليكشف كل منهما عن قيمة ما يعلن عنه وبيان اوجه مزاياه ، واهميته ، للفت انظار الناس اليه ، والحض على شرائه واستعماله . وقد شد انتباهنا طريقة سركيس في الاعلان عن محل تجاري في مصر جعله على النحو التالي :

« بين شاب وخطيبته » :

مريم : لا تكلمني يا ابراهيم من الان فصاعدا .

ابراهيم : ولماذا يا سيدة الملاح واي ذنب جنيت .

مريم : رايتك بالامس في المرقص واقفا مع الانسة

طيوف على الجفن

★

طرقت قلوبكم بابا فبابا   فمن اصغى الي ..؟ ومن اجابا
بعثت اليكم قلبي رسولا   وقد حملته روحي الكتابا
وددت لو ان نفسي قيد كفي   لكنت منحتها لكم ثوابا
أذود بلوب قلبي عن حماكم   وادفع عن مطارحها المصابا
واسفح دونكم ماء الحنايا   واسقيكم ندى عمري ملابا
وانثر في دروبكم عيوني   لتهديكم .. اذا شئتم ايابا
اليكم يا احبائي بقلبي   يريد الى صدوركم اقترابا
خلقت من التراب كما خلقتم   فكيف اليوم احتقر الترابا
وكيف اليوم انسى وجه امسي   ايغفر لي ..؟ اذا ما الامس آبا
وكيف اشيح عن زمن تقضى   فؤادي ، والفؤاد نوى اكترابا
واعرض عن صحابي بعد هجري   وهم كانوا وما زالوا الصحابا
تمر طيوفهم دوني الهوينا   وقد تخلت لها قلبي جنابا
تؤوب لتستريح على جفوني   وتسقي مقلتي مني عذابا
تلوب صبابة نفسي وتنوي   وقلبي من عذاب الهجر ذابا
هناك على مسارح ذكرياتي   تسنمت الطفولة والشبابا
وعشت مع الصحاب نعي عمري   ابادلهم محبتهم حبابا
وما ادركت ان العمر يمضي   وان الدهر ياخذنا غلابا

فنزويلا   جورج يوسف شدياق

هيلانه وقد اشرق وجهك فرحا كانك تعجب بجمالها فاكلتني الغيرة . .

ابراهيم : اخطات يا عزيزتي فانما اعجبني ثوبها الحريري والخروجات الجميلة فاحببت ان آتيك بنظيره وسألتها من اين اشترتها فقالت انها من المخزن الشهير المعروف بوادي النيل في الموسكي لصاحبه الخواجه خليل نعمه منصور .

فان هذه الطريقة التي عرفها واستخدمها سركيس من ثمانين سنة هي احدث ما تفعله شركات الاعلانات المتخصصة وباحدث الوسائل .. بل أن سركيس يجعل من هذا الاعلان التجاري قطعة ادبية تمثيلية تقوم على الحوار الفني بين اثنين ، كل عبارة تكشف عن معنى جديد ، ويستخدم فيها كلمات قليلة واضحة المراد ، ومثل هذه الاعلانات تبين لنا ذكاء سركيس وقدراته المختلفة وسعة حيلته ، وتنوع اشكال التعبير عنده .

والمجلة تكاد تكون كلها من اعداد سركيس ، ومن وحي خاطره ، و « مرآة الحسناء » بعد كل ذلك خفيفة لطيفة ، لا تفارقها الفكاهة المائعة ، ولا تخلو منها الحكمة والفائدة وتزخر بمادة تهم المراة والاديب ، فلا جرم ان اتخذتها الانثى مرآة تنظر فيها ، وانيسة لها في مجالسها ونواديها ، وليس ببعيد ان يرجع اليها الباحث الادبي ، فيستقي منها معارفه ، ويهتدي بموضوعاتها في كتاباته .

القاهرة   احمد حسين الطماوي



جعفر الخليلي

الأربعون من عمر الصحافة الأدبية

اربعون عقدا في حساب الحقيقة

بقلم جعفر الخليلي

* * *

العدد لغة هو ما يعبر عن المعدود دون اقل زيادة او نقصان ، وعلى هذا فان الاربعين لا تكون تسعة وثلاثين فما دون ، ولا واحدا واربعين فما فوق ، وهذا ما تقول به اللغة ، لغة جميع العالم ، وليس اللغة العربية وحدها، ولكن الواقع كثيرا ما يغير هذا المفهوم ويخالفه مخالفة كلية ولا سيما في اعمار الاعمال الجبارة التي طالما تقطع بضع سنوات بسنة واحدة او سنتين بسبب ما تبذل من جهد وتتكلف من مشقة ، ولذلك كانت السنة من العمل الجبار في الظروف القهارة تعد بسنتين وثلاث واكثر وربما بعقد من السنين .

ومن هذا الحساب ، وهو حساب صحيح لا غبار عليه تأتي سنو اعمار الصحافة ، والصحافة الادبية بصورة خاصة وفي الشرق العربي بصورة اخص وهو الذي تكثر فيه المثبطات ، والعراقيل ، والغمط ، والاهمال .

وهذا (الاديب) اديب الصحافي الكبير اللامع (البير اديب) قد قطع اليوم اربعين سنة من عمره في حساب الزمن ، واربعين عقدا في حساب الواقع ، يقف اليوم وقد بلغ النضج بحساب الزمن على ما تبانى عليه ، اسلافنا القائلون ان التجارب ، والحوادث ، والوقائع لتجعل العقل في اجتياز الاربعين متكاملا ، ناضجا ، والحق ان عقل (الاديب) كان ناضجا متكاملا منذ اول انشائه ولكنه جاء اليوم ليقول للذي لم يعترف بامكان التكامل قبل الاربعين ، لقد جاء (الاديب) ليقول لاولئك انه قد بلغ هذا الحد وهو موشك على تجاوزه وشاهده الشاعر الذي يقول :

وماذا يبتغي الشعراء مني وقد جاوزت حد الاربعينا

اما كيف قد جاوز هذا الحد ؟ وكيف قطع هذه السنين العجاف ؟ والهموم التي ركبته ؟ والالام التي عاناها في سبيل بقاء هذه الصحيفة او قل المدرسة خفاقة الراية ، موصولة الاخر بالاول فهذا ما لا يعرفه ولا يعرف حتى بعضه الا الذين مارسوا هذه المهنة مهنة المتاعب بروح مثل روح البير وهمة مثل همته ، وقد اتيح لهم ان يعايشوا هذه السنين مثلما عايشها (الاديب) وكانت حصيلتهم كحصيلة البير اختلالا في الصحة ، وعذابا للروح ، وتجرعا لمرارة الصبر مع فقدان الذخيرة من المال الذي لا يقوم شيء بدونه ، وسهرا متواصلا ، ولكن (للصبر حدود) كما تقول اغنية ام كلثوم ، وقد تجاوز والله صبر البير الحدود ويا ليته حين يلغ الاديب الاربعين كان كمن بلغ النهاية وكمن قالوا اذ قالوا :

(والقت عصاها واستقر بها النوى) .

ولكن طريق الادب ليس له نهاية ، ونحو حلقات متسلسلة ، اذا قدرنا ان نعين تاريخ الحلقة الاولى من سلسلة الادب العربي فلن يكون بمقدورنا ان نحدد اخر حلقة من هذه السلسلة ، واذا آمنا بان للعالم بداية فليس من السهل ان نؤمن بان له نهاية ، والادب ، او الصحافة الادبية انما هي مرآة هذا العالم وما يختزن من افكار ، وآراء ، وصور للفن ، والمحبة ، والخير والشر ، وقد كانت الاديب طوال عمرها البالغ اربعين عقدا في حساب الحقيقة المرآة الصافية الاديم التي عكست للانسانية كل الصور الفنية الجذابة الساحرة التي غرست في النفوس الطيبة والمحبة ، والذوق ، والادب الحق ، وكانت منبرا لاكابر الشعراء ، والخطباء ، والكتاب ، وعليها تأدب المتادبون وصار للكثير منهم شأن في دنيا الادب فاذا بهم كتاب المعيون ، وشعراء لامعون ، ونقاد ماهرون .

صحيح ان (الاديب) قد كرم من قبل ، وقد سمع (البير) ما قالت اهل المعرفة عنه وعن مهنة المتاعب التي اختارها لنفسه ولقي من ورائها اشد ما يلقى المعذبون ، اقول صحيح ان (الاديب) قد كرم من قبل ، ولكن التكريم الحق يجب ان يكون في هذا اليوم ؛ هذا اليوم

حنين أمس

يا رحمة الله على امس بالسعد وافاني وبالنحس
امس الذي خف ندي الضحى اسلمني للهم والبؤس
فحاضري – وقيت – من الجنى وكاس حران الصدى كاسي
تخابث القوم فلا راحم كانهم ليسوا من الانس
واستوحش الناس فلا سامر اصفيه بعض الشيء من همسي
يا رحمة الله ، اما نفحة جف ربيعي وذوى غرسي
عللت نفسي والمنى ضلة وصفقة لبيعة وكس

* * *

حييتك مني يا رحاب الصبا نجوى مشت في طيها نفسي
علالة بل صلوات على امس الهوى ما طلعت شمسي
واليوم ما لي غير ميت الرجا اصبح في هم كما امسي

* * *

يا رحمة الله على امس وطيب عهد اللهو والدرس
ويا صحابي يا رفاق الصبا اين زمان الطيش والباس
لله ايام لنا غضة طافت بنا وادعة الانس
عمي صباحا يا رحاب الهوى هل غير نجوى لاخي ياس

بغداد   ابراهيم السامرائي

الذي تكامل فيه نضج الاديب لتجاوزه الاربعين ، وجاء بالمعجزة الكبرى للداب ، والجهد ، والصبر على المكاره في سبيل الادب واهله ، وانا اعترف ان النخوة العربية بدات تحتضر ان لم تكن قد ماتت بسبب طغيان المادة التي جرفت بتيارها الكثير من المزايا ولكني مؤمن بان الادباء الخلصاء من اللبنانيين لم يموتوا ولم يحتضروا وان عليهم المعول في الدعوة الى تكريم الاديب التكريم اللائق بالمجاهدين العاملين في خدمة الناس ، وانما اخص بدعوتي ادباء لبنان لا لجدارتهم فحسب وانما لان الحمل الثقيل لا ينهض به الا اهله فكيف وهذا الحمل اخف من زغب الطير ومن نسيم الصيف في لبنان .

وهذا التكريم – اذا ما تم – انما هو تكريم للادب ، ولاهل الادب اكثر مما يكون تكريما لالبير نقه ، ويودي لو تقرا كلمتي هذه وزارة الاعلام والثقافة اللبنانية فاني احسن الظن بها باعتبارها الجهة التي عليها المعول في خدمة الثقافة والادب ، وما هي الثقافة والادب اذا لم تكن (الاديب) احدى مراياها التي تعكس لنا كل ما في دنيا العرب من الروائع ، اطال الله عمر صاحبها ، واخذ بيده ووفقه في اداء هذه الخدمة من جميع وجوهها .

نزيل سوق الغرب – لبنان   جعفر الخليلي

اذكار

نعمان ماهر الكنعاني

•

رب اني طال تذكاري   لغواياتي واوزاري
قبل ان اخشى من النار   رب اخشى ان تقاضيني
بصدود سوف يشقيني   آه من خوفي وافكاري

رب اني خائف قلق   من جفاء حمله رهق
مد ليلي الفكر والارق   لم لم اسمع لايماني
لم لم افطن لعصياني   اذ دعاني الطيش والنزق

رب اني ضقت بالنعم   للتي زلت به قدمي
انا ارضي قسوة الالم   تحتويني والاسى الطاغي
ما اعتراضي اذ انا الباغي   بك ربي كل معتصمي

نسورتي كانت بلا لين   وجماحي غير مأمون
كنت اجري وهو يدعوني   فاذا العصيان في سرف
لا يبالي اللوم في التلف   كان ـ ويحي ـ مارقا طيني

ما دنا شك لمعتقدي   او سمعت الريب من احد
ان ايماني بلا عقد   انني راض بتقاليدي
معرض عن كل تفنيد   مهتد بالنص في رشدي

ان ذكرت الزيغ اضطرب   وبصدري خافق يجب
ويقين هامس حدب   في عميق النفس يخبرني
ان ماحي الذنب يعرفني   انا غب الاثم ارتهب

سرت في درب الخطيئات   لا ارى غير الملذات
ثم قالت لي زلاتي   بعد عهد طال وا اسفا
كم مروق بت مقترفا   اي غبن في معاناتي

كل عذري انني بشر   لا نبي حين اعتذر
انما قد نالني الاشر   وطريقي كان متسعا
فجرت خيلي به سرعا   ذاك امسي ايها الذكر

يا اله الصفح خذ بيدي   قد دعاني مرهق الجلد
لشكاة قط لم تجد   غيرك اللهم من هادي
مد لي كفا لاسعادي   في الذي توليه من مدد

رب اني لم يـزل طمعي ... غير مامـون ولا ولـعي
وكثيرات عـرى البدع ... عند تفسير المريبـات
يـا كنـوزا للقناعـات ... ايـن درب الزهـد والورع

يا نجوم الليـل يـا قمـر ... كـم جميـل عندك السهر
كلما جاشت بي الذكـر ... ايقظت للوجـد احساسي
بشعـور الذنـب ، والاسى ... خشيتي لـه تعتـذر

اسـال الغفران مجتهـدا ... بصنيـع قـد يفيد غـدا
والاماني لم تكـف يـدا ... تقتضيني النفـع والضرا
شان دنيا الناس ، هل تبرا ... مـن صراع يحمـل اللددا

قال بعض الناس قـد عذلا ... وتناسـوا عهدنـا جهـلا
اسنى الغفران قد مثلا ... في حديـث بشـه نـاس
ام خيـالات ووسـواس ... رب لطفـا يشمـل الوجلا

لست ادري كيف تنظرني ... انما ادعـو ويطمعـني
انني مـا حيدت عن سنن ... قد حواهـا اللوح فرقاني
وبهـا ارواء وجـداني ... كل ذنبي كان مـن بـدني

عشت دهري دون اذعان ... لسوى الرحمن ذي الشان
فاذا مـا رابني جـاني ... اوعـات لي في السماء يـد
في حماهـا الامن والايـد ... فيلوذ الريـب ايمـاني

لم يكن يـاسي بـلا امـل ... رغم طـول العهد في الزلل
فذنـوبي نزرة الثقـل ... هكذا تبـدو لاحصـائي
ام خـداع فيـه اغـرائي ... يـا الهـي ملـني جدلي

لم تزل دنيـا الفوابـات ... لي بهـا بعض الصبابـات
ادريهـا بالمعانـاة ... آه كم القى بهـا عنتـا
اترى الاغـواء قـد ثبتا ... بي فلم تقلـع ضـلالاتي

فاذا فكـرت في الرسـل ... وبمـا بثـوا مـن الامـل
وبما جاءوا مـن المثـل ... لاح لي من (احمد) قبس
قـال كم للصفـح ملتمس ... فرصـدت العفـو في زللي

وبنفسي هاتـف الورع ... لم اكـن فيـه بمصطنع
فطـرة تسمو على البـدع ... لم افلسفهـا على دخـل
شان ذي زيف وذي دجـل ... ربما تجـدي لدى الجـزع

رب انـي طـال تذكاري ... رب انـي خفـت اوزاري
رب اني غيـر مختـار ... لذنوبي هـل تقـاضيني
عفـوك اللهم ، يرضيـني ... منـك ايمـاء لاعـذاري

بغداد ـ الاعظمية ـ الصرافية ... نعمان ماهر الكنعاني

تحقيقات عرضية

بقلم الدكتور علي جواد الطاهر

* * *

(١)

محمود محمود ـ اعلام من العصر الحديث ـ القاهرة ـ مكتبه الانجلو المصرية ـ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ ١٩٥٠ .

١ ـ ص ٣٤٢ ـ ٣٥٣ (مونتيني) : « اديب فرنسي عاش في القرن السادس عشر ولم يخلف لنا سوى كتاب واحد ، وذلك هو « المقالات » وكانه يصب نفسه صبا في هذا الكتاب الفريد الذي كان يدبج سطوره عفو الساعة بغير نظام او ترتيب ، يرسل خواطره ارسالا كلما يدفعه الى ذلك حادث يصادفه او كتاب يقراه .. لفظ نفسه الاخير في بيته الى جوار زوجته وابنته » .

توفي مونتيني في ١٣ ايلول ١٥٩٢ ولم تكن له ابنة تخلفه ، فقد ماتت بناته الست في حياته : الاولى ماتت وعمرها شهران ، الثانية عاشت ٤٥ سنة لم تكن خلالها على حال جيدة من الصحة ، الثالثة ماتت وعمرها سبعة اسابيع ، الرابعة ثلاثة اشهر ، الخامسة شهر واحد ، السادسة بضعة ايام .

اما هذه التي عاشت بعده فهي ماري دكورنه ابنة له بالتبني وقد تعرفها خلال اقامة له بباريس سنة ١٥٨٨ ، وارتبط اسمها بطبعة « المقالات » التي صدرت ـ باشرافها ـ سنة ١٥٩٥ معتمدة على النسخة التي اعدها المؤلف في سنواته الاخيرة منقحة مزيدة . وقد ظلت هذه الطبعة مدة طويلة تعد خير النصوص ثم اتضح ان الانسة كورنه قد تصرفت في التحقيق فرجع المحققون الى النسخة المخطوطة الاصلية المحفوظة في مكتبة بوردو واخرجوها في طبعة جديدة ..

٢ ـ قال المؤلف في « تقديم » كتابه : « وقد ذيلت الكتاب بمقال يحوي خلاصة راي ماثيو ارنولد الاديب الناقد الانجليزي في كتابه السير ، كتبه في صورة خطاب وجهه الى كتاب التراجم » .

ينتهي الكتاب في حديثه عن « الاعلام » ص ٣٥٣ ، وتبدا الصفحة التالية هكذا : الى كتاب التراجم .

(هذا خطاب مفتوح يوجهه الكاتب الانكليزي هافلوك اليس الى كتاب التراجم) . ثم تاتي ترجمة الخطاب ، والكلام الوارد فيه قيم ، ومنه : « ليس المترجم بالمؤرخ » والمقصود بالمترجم هنا هو كاتب الترجمة اي السيرة « لان معالجة الترجمة تختلف تمام الاختلاف عن معالجة التاريخ » بل « انه كلما ازداد تاهيل الكاتب للعمل الاول قل تاهيله للعمل الثاني » ..

الخطاب قيم .. ولكن مؤلف كتاب « اعلام من العصر الحديث » لم يشرح لقرائه العلاقة بين اسم «ماثيو أرنولد » الوارد في « التقديم » واسم « هافلوك اليس » الوارد على راس التذييل .

٣ ـ ص ٣٦٢ « ... اهم خدماتكم هي ان تحدثونا لا عن عمله ، ولكن عن الظروف التي تم فيها العمل » .

التعبير العربي المقبول هنا : ليست اهم خدماتكم ان تحدثونا عن عمله ..

٤ ـ ص ٣٦٨ « تحسون احساسا غرزيا » : الصحيح : غريزيا .

(٢)

الدكتور زكي نجيب محمود ـ قصاصات الزجاج ، القاهرة ، دار الشرق ، مطابع الهيئة المصرية ١٩٧٤ .

١ ـ « الاهداء : الى نفسي .. التي تعاني من جدها العاثر .. »

٢ ـ « كلمة اولى : في هذا الكتاب مجموعة مختارة من مقالات كتبت كلها قبل ثورة ١٩٥٢ ، اذ كتبت في الفترة التي امتدت من اواخر الثلاثينات حتى اول الخمسينات ، .. كتبت هذه المقالات في ذلك الزمن البعيد لكن كاتبها .. أوهمته نفسه المغرورة ان يعيد نشرها في جيل جديد ، لعلها تجد اليوم اهتماما لم تجده بالامس ».

وتتوالى المقالات التسع والاربعون ..

ويود القارىء لو احتفظ الكاتب للقارىء وللدارس بتاريخ نشر كل مقالة ومكان نشرها .. ولكنه لم يفعل .

ويود كذلك لو ان الكاتب اشار في مقدمته القصيرة الى مجموع سابق له من المقالات « الادبية » اصدره عام ١٩٤٧ (القاهرة ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر) بعنوان « جنة العبيط او ادب المقالة » واللاحظ انه احتفظ لاهداء « القصاصات » سنة ١٩٧٤ باهداء « جنة العبيط » سنة ١٩٤٧ ، سبع وعشرون سنة ونفسه تعاني من جدها العاثر .

ويود كذلك لو اشار في مقدمته القصيرة الى ان الاثنتي عشرة مقالة الاولى من كتابه الجديد كانت قد

وردت في كتابه القديم على اختلاف قليل في التسلسل ، وان بين هذه الاثنتي عشرة مقالة المنقولة ما كان عنوانا للكتاب الاول (جنة العبيط) وما صار عنوانا للكتاب الثاني (قصاصات الرجاج) واما العشر الباقية فهي : البرتقالة الرخيصة ، ذات اليمين ، خطيب هايد بارك .. في سوق البنال ، بيضة الفيل ... الدقة الثالثة عشرة ، شعر مصبوغ ، تجويع النمر ، الكبش الجريح ، حكمة اليوم .

وبود لو ان المؤلف نقل الى الكتاب الجديد - اذ نقل ما نقل - مقدمة الكتاب القديم في « ادب المقالة » لروعتها في بابها وليطلع عليها من الشباب من صار صعبا عليه ان يطلع على كتاب جنة العبيط .

وبذكر ان العقاد كتب عن « جنة العبيط » مقالة نشرها في مجلة الرسالة ٢-٨-١٩٤٨ بعنوان « ادب المقالة » لم يتفق في جملتها مع زكي نجيب محمود في مفهوم « المقالة » فقد كان محمود اميل - ان لم يكن متعصبا - للمقالة الابداعية الانشائية القادر عليها (وعلى غيرها) ، وكان العقاد اميل - ان لم يكن متحيزا للمقالة الفكرية ، التعليمية التي لا يكاد يقدر على غيرها ، وكان ايسر ما قاله ، واصحه : « ان المقالة انواع وليس بنوع واحد » . ولم يكن زكي نجيب محمود ليجهل ذلك ، ولكنه كان يتحدث - ويدعو - الى نوع واحد .. ينظر مما طبع للعقاد - « آراء في الاداب والفنون » ، القاهرة ، بيروت ، الهيئة العامة ، د. ت ، ص ٢٦٦ - ٢٧٠ .

(٣)

الشعر والشعراء ، طبقات ، لابن قتيبة ، الطبعة الاولى ، قسطنطينية ١٢٨٢ .

اعادت احدى دور النشر طبعه مصورا (مؤفستا) ، عالم الكتب ، بيروت ، د. ت (وصل الى بغداد ١٩٨٠) .

لم يعد لهذه الطبعة العتيقة قيمة علمية بعد طبعة اوربا ، وطبعة دار الثقافة ببيروت معتمدة على ط . اوربا بل بعد تحقيق الشيخ احمد محمد شاكر في القاهرة ، ط٢ دار المعارف ١٩٦٦ - ١٣٨٦ .

يا حبذا لو قامت اعادة الطبع (والتصوير) لدينا على أساس علمي ، علما ان تحقيق شاكر قد اعيد طبعه ثالثة (تصويرا) القاهرة ، دار التراث العربي ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م .

(٤)

نماذج من القصة الجزائرية المعاصرة - الجزائر ، منشورات آمال ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، مديرية الانتاج ، مطبعة احمد زبانة . د.ت (١٩٨٠؟) .

في القصة الاولى : الاصوات بقلم عمار بلحسن :

١ - ص ٧ : « تلك جهيل خيول الرجال » :
الصحيح ، ذلك .

٢ - ص ١٤ « فيها دفيء نقر » : الصحيح ، دفء .

٣ - ص ١٤ « في احدى قصور برلين » : الصحيح ، في احد قصور ..

٤ - ص ١٥ « الصندوق الاحمر الذي تخبىء فيها وثائق .. » : فيه .

٥ - ص ١٦ « لا يملكون لا سطح ولا باب » : لا سطحا ولا بابا .

٦ - ص ١٧ « ثلاث نوادي » : ثلاثة .

٧ - ص ١٧ « العمال يبكرون .. حتى لا يضيعون اماكن شغلهم » : حتى لا يضيعوا .

٨ - ص ١٨ « جمع حوالي الفين عامل » : الفي عامل ، او الفين من العمال ..

٩ - في القصة ذات الـ ١٢ صفحة ، عددت ست مرات « فقط » اكثرها في مبتدأ جملة ، وليس في ذلك شيء من اساليب العربية ..

١٠ - ص ١٦ « زيت ردئة » : رديء .

١١ - ص ١٠ « عندما يصل الجابي ، نحسبه نسرا يريد بلب كل ما نمسكه في ايدينا .. ليأخذه اليه .. » .
ما المقصود بـ : يريد بلب ؟

وبعد

فاقل ما كان يجدر بالكاتب ، ان يتنبه اوليات اللغة العربية في المؤنث والمذكر ، والعدد والمعدود ، والناصب والمنصوب ، والمضاف والمضاف اليه .. وهي ليست بالمادة الصعبة على طالبها .

هل يستطيع فرنسي - مثلا - ان يقدم على كتابة قصة ، يطمح الى ان يكون قاصا .. قبل ان يتعلم اوليات لغته ؟ لا .. فلم تقدم نحن ؟

ثم كان عليه أن يعرض عمله على عارف باوليات اللغة العربية ، ليؤنث له المؤنث وينصب المنصوب ..

ثم ان آمال مسؤولة كذلك .. فهل يصدر ، في العالم ، في فرنسا مثلا ، كتاب في سلسلة ، وعن هيئة وفيه من الخطأ النحوي ما في « الاصوات » مثلا .. و « الشركة الوطنية للنشر » مسؤولة .. لان الخطأ قد يحسب عليها .

هذا ، وليست الظاهرة خاصة بالجزائر .. وانما هي ، لسوء الحظ ، في كل مكان ، في القاهرة كما في بغداد !!

(٤)

المغامرة المعقدة (.. في الفن الروائي ..) - محمد كامل الخطيب - دمشق ، وزارة الثقافة ١٩٧٦ .

١ - ص ٤٠ « وبدهي ان .. » تكررت ص ٧٩ ، ١٣٦ .
الصحيح : وبديهي .

٢ - ص ٤١ « وهكذا فان الغرب بدا هذه المرة يتثبت مواقعه .. » .
الصحيح : .. يثبت .

٣ - ص ٧٤ « فنيا ، وتعت الرواية .. ضحية

انقطاع النفس الروائي » .

ص ٧٦ « اعطت البرجوازية المحلية اقصى مـــا تستطيع .. »

ليس التعبير « فنيا » و « اجتماعيا » من طبيعة البناء العربي للجملة المفيدة .

٤ ـ ص ٨٩ « هي سيرة مصاغة روائيا »

الصحيح : مصوغة .

٥ ـ ص ٩٢ « بعد ستة اعوام من نشر عصفور من الشرق ، فان الحكيم سوف ينشر « زهرة العمر » ..

التعبير ليس عربيا ، الفاء لا موجب لهـا . سوف ينشر : نشر ..

٦ ـ ص ٩٩ ـ ١٠٠ « ان اشارتنا هذه لا يمكن ان تجعلنا نعطي الرواية الابعاد والرؤية اللتين يعطيها لهـا بعض النقاد »

يعطيها لها : يعطيهما اياها . والتعبير بعد ذلـك مضطرب .

٧ ـ ص ١٤١ « .. ولاظهار تاريخ الجزائر ككل »

ثقيلة هذه الـ « ككل » التي اكثر منها الكتـــاب المعاصرون .. ويمكن ان نقول : لاظهار تاريخ الجزائـر كـلا ...

٨ ـ ص ١٤١ « مصائر جديدة »

الصحيح : مصاير .

٩ ـ في اسم الكتاب غموض ، وهو في الاصل عنوان « رواية .. للكاتب السنغالي « حميد وفان » ترجمة : مجرم نسيم ، اصدار الهيئة المصرية ١٩٧٥ » . وقد وضع المؤلف عنوانا شارحا تحت « المغامرة المعقدة » فقال : « مقدمة في تاريخ العلاقة بين المجتمع العربي والغرب كما يظهرها الفن الروائي في نشوئه وتطوره » .

(٥)

هذا هو الحب ، تاليف ستندال ، ترجمة صوفي عبدالله . كتاب الهلال ، ربيـــع الاول ١٣٩٨ ـ مارس ١٩٧٨ . القاهرة .

١ ـ تصرفت المترجمة بالعنوان ، لان الاسم الاصلي للكتاب هو De l'Amour اي « عن الحب » .

٢ ـ تصرفت في تبويب الكتاب لان المؤلف عقده على كتابين : اول وثان ، وانه جعل الفصول متوالية متسلسلة وكانها في كتاب واحد ، بين هذه الفصول القصير والقصير جدا والمعتدل وقد بلغ مجموعها ستين فصلا ـ وليست كلمة « الفصل » هذه مما وضعه المؤلف في كتابه وانما ذكرناها هنا لحاجة اليها لدى الكلام على الترجمة ، اما المؤلف فقد اقام كتابه على افكار تقصر او تطول يفصل احداها عن الاخرى برقم روماني ،يضـــع تحت الرقم الروماني عنوانا للفقرة مرة ولا يضع مرات .. وبلغت هذه الارقام ستين رقما .

اما المترجمة فقد جعلته كتابا واحدا واختصرت في « الفصول » وجمعت ـ كما تشاء ـ فجاء كتابها في تسعة عشر فصلا .

٣ ـ لا تكاد تبلغ الترجمة العربية نصف المـــادة الاصلية (الفرنسية) ، فقد جاءت في (١٦٢) صفحة من الحجم الصغير على حين بلغ الاصل (٢٥١) صفحة اكبر حجما واصغر حرفا .

٤ ـ كان للاصل ثلاث مقدمات كتبها المؤلف في (١٦) صفحة اكتفت المترجمة منها بصفحة واحدة .

٥ ـ كتب على الغلاف الاخير من كتاب الهلال :

ا ـ « ستندال امير من امراء النثر الفرنسي .. »

والواقع ان مكانته ـ او مكانة نثره ـ عالية في تاريخ الادب الفرنسي ، ولكن القوم هناك لا يعنون بمنح الالقاب .. ويا حبذا لو عرفنا الناقد الفرنسي الذي منح هـذه الامارة ؟ حبذاً .. لو وجد هذا الناقد ؟

ب ـ « .. هذا الحب كان محور حياة الناس منذ نصف قرن » .

ولا بد من أن يكون قد وقع خطا مطبعي صحيحه : « منذ قرن ونصف القرن » لان ستندال الف كتابه سنة ١٨٢٢ .

٦ ـ ما ضر لو ذكرت المترجمة موقفها من الكتاب في المقدمة، فذكرت تصرفها فيه ؟

(٦)

العلاقات السياسية بين العراق وبريطانيا ١٩٢٢ ـ ١٩٣٢، تاليف احمد رفيق البرقاوي ، بغداد ، دار الرشيد ١٩٨٠

١ ـ نفهم من المقدمة ان الكتاب رسالة علمية جرت باشراف الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى .

٢ ـ بذل المؤلف جهدا في الرجـــوع الى المصادر ـ ولكننا نعجب من انه لم يرجع الى مصدر مهم جدا هـو « تاريخ القضية العراقية » لمحمد مهدي البصير . ترى كيف يتحدث باحث عن ثورة ١٩٢٠ واختيار فيصل ملكا ومعاهدة ١٩٢٢ .. من غير ان يرجع الى هذا الكتاب ، فضلا عن ان يكون بين مصادره مراجع من درجة ثانية او ثالثة .

(٧)

مدخل الى تاريخ الرومان وادبهم وآثـارهم ، تاليف آ. بتري . ترجمة الدكتور يوئيل يوسف عزيز ، الموصل ، مطابع جامعة الموصل ١٩٧٧ .

١ ـ ص ١٠١ « كانت حركة احياء المعرفة في القرن الرابع عشر » ، ص ١١٨ .

الذي صار مصطلحا في مقابلة هذه الترجمة : عصر النهضة او الحركة الانسانية ..

٢ ـ ص ١٠٣ « لم يصل الينا من هذه الملحمة الا نتفا » ، ص ١٠٥ .

الصحيح : نتف .

٣ ـ ص ١٠٤ « .. بل ود قبل .. » .
الصحيح : بل قد قيل ..

٤ ـ ص ١٠٤ « وكل ما وصل الينا من مؤلفاته هي ست من ملاهيه ، التي يتفق النقاد على انها تتصف بسلامة ما تحتويه .. »

التعبير العربي المقبول هو : .. الادبية ست من ملاهيه يتفق النقاد ..

٥ ـ ص ١٠٤ « نذكر كل من .. » : نذكر كلا من.

٦ ـ ص ١٠٤ « في حقل الساتورينا الاصلية . فان اول مؤلف بارز .. هو كيوس لوسيليوس .. »

التعبير العربي المقبول هو : ان اول مؤلف بارز .. في حقل الساتورينا الاصلية هو كيوس لوسيليوس ..
او : كيوس لوسيليوس اول مؤلف بارز ..

٧ ـ ص ١٠٦ « شيشرون .. ربما كانت الخطب القضائية اكثر ملائمة له »
الصحيح : ملاءمة .

٨ ـ ص ١٠٨ « لوكريتيوس .. في الطبيعة .. اعظم قصيدة تلقينية .. » ، ص ١١٠

اعتدنا اشتعمال « تعليمية » ترجمة لديداكتيك وصار الاستعمال مصطلحا او كاد ، فلا موجب للتلقينية .

٩ ـ ص ١٠٩ « وكان وزيره سند كبير .. » : سندا كبيرا .

١٠ ـ ص ١١٠ « هوراتيوس .. في الشعر .. » : فن الشعر

١١ ـ ص ١١٢ « في اربع كتب » : اربعة كتب .

١٢ ـ ص ١١٢ « مكائد » : مكايد « خمسة عشر جزء » : جزءا .

١٣ ـ ص ١١٦ « درس البلاغة على يد احد مدرسي البلاغة في روما » : الخطابة .

١٤ ـ ص ١١٨ « كان ينشر الانتاج الادبي للمرة الاولى عن طريق القراءة العلنية ثم ياخذ المؤلف نتاجه الى احد الناشرين الذي يقوم باعداد طبعه ار نسخه .. »

الصحيح ـ هنا ـ ان يقال : كان المؤلف ينشر .. وتعدل الجملة على هذا . ولم يكن للطبع وجه في العهد الروماني .

(٨)

محمود تيمور ـ اتجاهات الادب العربي في السنين المائة الاخيرة . القاهرة ، مكتبة الاداب ومطبعتها ١٩٧٠ .

١ ـ فيه غير المقالة الاولى التي صارت عنوان الكتاب : عائشة التيمورية ، شوقي والمسرح ، حافظ ، طه حسين ، توفيق الحكيم ، العقاد ، محمد فريد ابوحديد عزيز اباظة ، خليل مردم ، محمود طاهر لاشين ، محمد السباعي ، زكي مبارك ، اسماعيل مظهر ، صديق شيبوب ، مندور ، الخولي ، مراد كامل ، دور الادب في المجتمع ، كيف اصبحت قصصيا ـ على سبيل الذكرى والاعجاب ونهج المقالة التي تريد ان تكون خفيفة الظل .

٢ ـ ص ١٤ ، استعمل « المقاليون » لكتاب المقالة.

٣ ـ ص ١٦ ـ ١٧ « ان احدى دور الكتب العامة في الشرق استطاعت احصاء عشرة آلاف قصة بين طويلة وقصيرة ترجمت الى العربية قبل الحرب العالمية الاخيرة » .

٤ ـ ص ١٥ « .. عصر النهضة .. » ص ٢٠ «ولقد كانت هذه السنوات التي قوي فيها تعرف الادب العربي الى القصص الغربي امتدادا لعهود سياسية من الضغط والاضطهاد عانت فيها الامة مرارة التحكم الاجنبي ، فسادت موجة من المشاعر الحزينة تعبر عن المسكنة والانكسار ، وانست النفوس الى الاسترسال في الحديث عن مآسي الحب والفقر والعادات وآثار التخلف الاجتماعي .. » ص ٢٢ «وفي مستطاعنا ان نتبين في الادب في تلك الفترة سمات « الرومانسية » ص ٢٣ « الدافع اليها ما ضاق به المجتمع العربي من كبت وحرمان وضغط سياسي وركود اجتماعي ، وضعف في المستوى العلمي والاقتصادي ، فتاقت النفوس الى تنفيس وترفيه ، بالاسترسال في متع الخيال ، والهيمان مع العواطف الملتهبة ، فرارا من جفاف الواقع وجموده ، وانسا برحيق الاوهام في كؤوس من ذهب وهاج .. » ـ من امثلته ص ٢٠ ـ ٢١ « المنفلوطي » . ثم ص ٢٣ « هبت ـ على الادب العربي في الشرق ـ .. نفحات ادب عربي رومانسي ايضا من وراء المحيط » اذ « نشأ ادباء ـ عرب ـ تأثروا بالحياة الغربية وآدابها ، واعتملت في نفوسهم مشاعر الغربة والحنين الى الاوطان .. الشعر المنثور .. جبران والريحاني ونعيمه وايليا ابو ماضي .. »

٥ ـ ص ٣٢ « ومما يذكر للصحافة انها هي التي ازدهر في حقلها ذلك الفن الكتابي الذي اطلق عليه اسم « المقالة » ، فكانت اشبه بالرئة التي تعين على التنفس في يسر ، وجد الكتاب والادباء فيها مجالا للافصاح عن خواطرهم والتعبير عن افكارهم ، واصبحت « المقالة » غذاء سهل الاعداد على الكاتب سهل الهضم على القارئ».

٦ ـ ص ٣٢ « ويعتبر الربع الاول من القرن العشرين في حياتنا الادبية مرحلة حرث وتخطيط والقاء للبروز المختلفة ، وتعهد لها بالسقيا ، وتجربة لنباتها في حقول الاذهان .. »

يمكن ان تكون البزور بالزاي صحيحة ، ويمكن ان تكون خطأ مطبعيا محتمل الورود على لسان الطباع المصري صحيحه : البذور . البزر : حب جمعه بزور ، والبذر حب جمعه بذور . ولكن البذور اكثر ورودا على اقلام الكتاب ..

٧ ـ ص ٤٥ « .. قصة « المستضعفين في الارض » للدكتور طه حسين .. »

يقصد : « المعذبون في الارض » .

٨ ـ ص ٤٧ « يتوثب الى الامام بخطا فساح » ..

كذا كتب جمع الخطوة . وكذا ورد مرسوما في القاموس المحيط . والمشهور في رسمه : خطى ، وكذا ورد في مختار الصحاح . وفي كتابة تيمور تسهيل لباب صعب من ابواب رسم الحروف (الاملاء) .

٩ ـ ص ١٠٩ « كتب الرجل القصة على تخالف نطاقها : طويلة وقصيرة ، وعلى تعدد نوعها : تمثيلية وغير تمثيلية .. ودبج الفصول في نقد الحياة والمجتمع ..»

أ ـ كثيرا ما ترد « التمثيلية » لدى تيمور على انها قصة .. ومع القصص . تنظر ص ٢٠٢ « ولقد كتبت القصة قصيرة ومطولة ، وكتبتهـا للقراء وللمسرح » ، وتنظر ص ١٠٨ « اهل الكهف » .

ب ـ يقصد بالفصول ـ هنا ـ المقالات .

١٠ ـ ص ١١٨ « والعقاد .. كان من الفاقهين لعلوم العربية التي لا يعنى بها الا اهل الاختصاص .. »

المستعمل : الفقيه والفقهاء ..

١١ ـ ص ١٥١ ـ ١٥٧ « محمد السباعي » .

ورد هذا الكلام في الاصل مقدمة لكتاب ضم مقالات لمحمد السباعي نشر بعنوان « مشاعر وافكار » .

١٢ ـ ص ٢٠١ « ولم اكن ابالي هذا من الاصدقاء» .

لا اباليه ، الواردة هنا هي الصحيحة ، ولكن الذي شاع لا ابالي به .

١٣ ـ ص ٢٢ « سمات الرومانسية مع اختلاف دوافع توافرها في الادب العربي » ص ١٦٧ « البحوث التي توفر عليها زكي مبارك .. »

كثر في لغة العصر الحديث استعمال توفر يتوفر توفرا متوفر ، ولا احسب اني رايتهـا مستعملة في نص قديم . ثم جاء اللغويون المحدثون فقالوا : الصحيح : توافر يتوافر توافرا ، متوافر .. وما احسبني رايت هذا الاستعمال في نص قديم .

ويقول الدكتور ابراهيم السامرائي : المستعمل : وفر عليه حقه توفيرا .. استوفاه ، وتوفر عليه رعى حرماته . هم متوافرون اي كثيرون ، وفر الشيء كثره .. جعله وافرا .

١٤ ـ يا حبذا لو ثبت تيمور ـ وهو الدقيق ـ تواريخ المواد واماكن نشرها قبل ان يتكون منها هذا الكتاب .

(٩)

بين آمو ـ داريا وجمنا ـ بقلم ارنولد توينبي ، ترجمة حسين الحوت ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر، سلسلة من الشرق والغرب ، مختارات الاذاعة والتلفزيون د.ت . يفهم من مقدمة المؤلف انه قام بهذه الرحلة لزيارة المنطقة سنة ١٩٦٠ .

ما ضر لو ان المؤلف عرض عمله على عارف باللغة العربية وعارف بالجغرافية العربية ؟

١ ـ ص ١١ الهللينية : الهلينية .

٢ ـ ص ١٩ « ان جغرافي العرب القدماء يتبعون الاغريق في تقسيم الارض الى سبعة اجواء » .

ان الجغرافيين العرب قسموا الارض الى سبعة اقاليم .

٣ ـ ص ٢١ « كابول » الصحيح كابل ، وقد وردت ص ٢٥ صحيحة : كابل .

في معجم البلدان : « كابل بضم الباء الموحدة ولام.. في الاقليم الثالث » .

٤ ـ ص ٥٥ « قندوهار » الصحيح قندهار ، وقد وردت ص ٥٦ صحيحة : قندهار .

في معجم البلدان : « قندهار بضم القاف وسكون النون وضم الدال مدينة في الاقليم الثالث » .

٥ ـ ص ٦٦ « هيرات » وتتكرر ..

الصحيح : هراة . في معجم البلدان « هراة بالفتح مدينة .. من امهات مدن خراسان » .

٦ ـ ص ٦٧ « اذكر لك المسجد الجامع .. والمئذنتان اللتان ترتفعان » : والمئذنتين اللتين ..

٧ ـ ص ٦٨ « القيشاني » : القاشاني نسبة الى قاشان « والعامة تقول : القاشي » ينظر معجم البلدان .

٨ ـ ص ٨٠ « في وسط هذا الشد والجزب » : الجذب ، وهو من خطأ المطابع المصرية (واللبنانية) .

٩ ـ ص ٩٣ « ولا يفوتني هنا ان اسجل حادثان لا يزال اثرهما قويا في نفسي . اولاهما .. »

الصحيح : اسجل حادثين .. اولهما ..

١٠ ص ٩٤ « احدى عشر قرنا » : احد عشر .

١١ ـ ص ١١١ « عندما تعبر الكوبري المعلق .. » الجسر ، فلا تليق كلمة كوبري بالترجمة الفصيحة .

١٢ ـ ص ١١٢ « ان تقدير المسجل كان خاطئا » : مخطئا .

١٣ ـ ص ١١٤ « اصبحت جزء منها » : جزءا .

١٤ ـ ص ١٤١ « بلوخستان » وتتكرر .. الصحيح بلوجستان ، ربما نسب اليها ببلوشي .

١٥ ـ ص ١٤٤ « قوم يعيشون في القفر فينتزعوا منه شعرات الصوف وسنابل القمح » .

الصحيح : فينتزعون .

١٦ ـ ص ١٤٢ « لقد نقشت الاسمان في ذاكرتي » الصحيح : الاسمين ، ما لم يكن شيء من خطأ مطبعي في الكلمة كان تكون الاسماء !

١٧ ـ ص ١٤٥ « رؤياها سوف تكون انذار لي » : انذارا .

(١٠)

مختارات جرجي زيدان ـ جرجي زيدان . دار التراث ، بيروت ، د.ت .

١ ــ واضح ان هذه الطبعة اعادة (مصورة) لطبعة مصرية سابقة . ولكنها لم تشر الى ذلك .

نرجع الى الطبعة السابقة : مختارات جرجي زيدان دار الهلال بمصر ١٩٣٧ فنلاحظ ــ فيما نلاحظ ــ ان طبعة بيروت حذفت من البداية صفحة فيها كلام على الطبعة الاولى : مقدمة الطبعة الاولى : « هذه مجموعة مقالات لمؤسس الهلال رحمه الله .. وقد اختار هذه المقالات مؤسس الهلال نفسه وكان عازما على اصدارها في كتاب فعاجلته المنية قبل ان يتاح له ذلك .. »

صدرت الطبعة الاولى ــ اذا ــ بعيد موت المؤلف (توفي جرجي زيدان في ٢١ يوليه سنة ١٩١٤) ــ ولد سنة ١٨٦١ .

ومقدمة الطبعة الثانية : « صدرت الطبعة الاولى من هذه المختارات في ثلاثة اجزاء . وقد راينا عند اعادة طبعها ان نختصرها في مجلد واحد شامل لاحسن ما نشر في تلك الاجزاء الثلاثة » .

حذفت طبعة بيروت هاتين المقدمتين ، وحذفت معهما المقالة الاولى : « حاجتنا الكبرى » ص ١ــ٧ عن « الهلال » سنة ٢٢ ــ ولم تشر الى ذلك ، ولم تنص على تاريخ الطبع ويبدو انه جرى في الستينات .

٢ ــ نقرأ اليوم هذه المقالات المختارة على مدى اكثر من عشرين سنة من عمر الهلال مبتدئة بالاحدث منتهية ــ على وجه التسلسل ــ بالاقدم فنراها عتيقة ، اعتيادية ، ميسورا محتواها لعامة الناس ، وليس لمبناها حظ من الجمال الادبي .. فهي تعليمية لعصرها مضمونا وشكلا . داعية للاصلاح الذي يقتضيه المجتمع آنذاك مع حس وطني انساني يميل مع المظلوم على الظالم ومع الفقير على الغني .. ــ فهي ــ اذا ــ جزء من التاريخ ، يرجع اليها من اراد الوقوف على اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين (صدرت الهلال في سنة ١٨٩٢) في فكره وقضاياه العامة وما يشغل المثقفين .. فيعرف من الامر غير قليل ويحمد للكتاب سهرهم وحرصهم على توفير اسباب النهضة ورعاية الاخلاق للفرد والمجتمع .

٣ ــ وننص هنا على المقالين الاخيرين ــ فيما يتصل باهتمامنا الادبي ــ : « التاليف في اللغة العربية » . « اللغة العربية الفصحى واللغة العامية » ، وقد كان المؤلف ــ كما هو طبيعي ــ مع الفصيحة داعيا اليها ، مقابلا بينها وبين العامية ، ذاكرا العوامل التي تخدمها ، وقد اثاره الى الكتابة في هذا الموضوع محاضرة القاها المستر وليم ولكوكس دعا فيها الى اغفال الفصيحة واحلال العامية (المصرية) محلها ــ نشر زيدان مقالته في السنة الاولى من « الهلال » .

ولمقال « التاليف في اللغة العربية » اكثر من اهمية ، منها دعوته المبكرة الى ما نسميه ــ اليوم ــ منهج البحث ، وعزوه التأخر في التاليف الجيد الى نقص « التدرب على البحث والتنقيب والقياس والاستنتاج » ، ومع انه اشار الى ما للعرب القدماء من « القدح المعلى في هذا الباب » مكتفيا بالاشارة عما بسطه في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » .. فانه قال : « لكن لكل عصر نسقا في التاليف يلائم اهله . فنسق هذا العصر يختلف عن نسق القدماء مثل اختلاف سائر احوالنا عن احوالهم . ونحن في هذه النهضة عولنا في اقتباس العلوم الحديثة على اصحاب هذه المدنية فنقلناها عنهم ، ولهم طرق في التاليف يحسن تحديها لما فيها من التمحيص والترتيب والتبويب » .

وعاد الى الثناء على « المصادر العربية » وما يمكن ان يوجد فيها من حقائق « غير ما يستفيدونه من طرق التعبير والالفاظ الوضعية فيستعينون به على تقديم اسلوبهم عند نقل ذلك العلم عن المصادر الافرنجية » .

وقد ربط زيدان بين منهج البحث وسلامة اللغة بل انه جعل اللغة جزءا من المنهج « فعلى من يعمد الى التاليف ان يحافظ على ملكة اللسان العربي ويتجنب التعبيرات الافرنجية ولا يتم ذلك الا بمطالعة الكتب العربية الخالية من شوائب العجمة » .

واداه هذا الباب الى الكلام على « الاسلوب » وكلامه رائد في بابه قدم له بقوله : « يقسم الانشاء الى قسمين كبيرين : انشاء علمي ، وانشاء ادبي . ولكل منهما فروع يستخدم كل فرع منها في موضوع دون الاخر » ثم انتقل الى « الاسلوب » فقال :

« اذا تصفحت كتابا ثم نظرت فيه نظرا عاما مؤلفا من شيئين متباينين هما موضوعه ولغته او اسلوبه او هما معناه ولفظه . فالموضوع او المعنى هو الغرض الذي يريد المؤلف ايصاله الى ذهن القارىء ، واما الاسلوب فهو الآلة التي يستخدمها في ايصال ذلك الغرض . فاذا عمد جماعة الى التاليف في الثورة العرابية مثلا ، كان غرض كل منهم بيان تلك الثورة بما تقدمها ودعا اليها من الاسباب ، ثم ما توالى من حوادثها الى انقضائها وما نجم عنها من العواقب السيئة او الحسنة . فاذا قرات كتاب كل منهم على حدة رأيتهم يختلفون في كيفية تادية تلك الحوادث وترتيبها باختلاف ما يعلمه كل منهم او ما فطر عليه من طرق التعبير . وظهر لك تباين في اساليب التاليف وان يكن الموضوع واحدا . وقد تستحسن اسلوب بعضهم وتستهجن اسلوب البعض الاخر وهو الفرق بين ملكات الانشاء في الكتاب » .

وهو يرى ان الانشاء « ملكة غريزية » .. « ولكل كاتب اسلوب خاص به يمثل سلسلة افكاره يعبر عنه الافرنج بقولهم Style وهو الذوق او النفس في اصطلاح الكتاب ، فالكاتب يمتاز بذوقه ويعرف به ، ومن عانى الكتابة ودرس اذواق الكتاب سهل عليه تمييز الكاتب

بمجرد مطالعة ما يكتبه .. يقول الفرنسيون

«Le style c'est l'homme»

اي ان الاسلوب يمثل كاتبه » .

٤ ــ رسم هرقل ص ٢٩ : هركليس . وردت ص٢٥ صحافي ، ص ٣١ تلبك . ص ٧٦ الحماة (ام الزوج) . ص ١٩ « الوجدان : بشعور الانسان بوجوده وبما يحيط به » . ص ١٦٥ استنجده . ص ١٢٩ بؤرة : « مدينة السلام بؤرة التمدن». ص١٠٧ انشئوا «رسم الحروف على الطريقة المصرية ، فلم يرسمها : انشاوا » . ص ١٦٧ ، ١٧٨ الادبي بمعنى الاخلاقي . ص ١٨١ « حقائق هامة » ص ٢٥ ، ١٨٥ « المقالة » ، ص ١٨١ « العصري » . ص ١٨٨ « الجامعة العربية » (فيما يقابل في ايامنا الوحدة العربية او ما يقرب منها) . ص ٨٩ « يكاد لا يجد » (بدلا من لا يكاد يجد) . ص ٨٦/ ٨٧ «الناموس» فيما يقابل القانون . ص ٨٦ ، ٨٩ ، ١١١ ، ١٢٢ « الهياة الاجتماعية » بما يقابل ما نستعمله اليوم للمجتمع . رسمت الهياة مرة اخرى على « الهيئة » ص ١٦٨ .

يمكن ان يخدم التنبيه الى هذه الكلمات .. الدارسين ، من اللغويين خاصة ، الذين يبحثون في تطور الاستعمال .. وتاريخ المصطلح .

واستعمل ص ١٨٧ كلوب وكان نادي لم تكن ، و « القى .. خطبة » ويريد محاضرة ، وكتب الانجليزية بالكاف ولم يكتبها بالجيم على الطريقة المصرية .

٥ ــ من الاستعمالات التي شاعت في عصر زيدان كلمة « بدهي » الواردة ص ١٨٢ وهو خطأ صحيحه : بديهي ونجد عند غير زيدان طبعي الخطا بدل طبيعي الصحيح . وقد سالت الدكتور مهدي المخزومي عما يكون وراء الخطا فقال : ان القاعدة في النسبة على ما كان على وزن فعيلة مثل بديهة وطبيعة ان يكون على وزن فعيلي اي بديهي وطبيعي ، الا ما كان اسما علما فياتي النسب حينئذ على فعلي ، فالنسبة الى المدينة : المدني والى بجيلة : بجلي . ويفهم من هذا ان القوم في عصر زيدان عمموا قاعدة النسب الى العلم على ما ليس بعلم ..

٦ ــ ومن التعبيرات الخطا ما جاء في « المختارات » ص ١٨٧ : اشار باغفال الفصحى واستبدالها باللغة العامية . والذي علمنا اياه استاذنا الدكتور مصطفى جواد ان الباء تدخل على « المستبدل » اي : استبدال العامية بالفصحى .

ومثل ذلك قل فيما ورد على الصفحة نفسها : « الامة الانكليزية .. استفادت فائدة كبيرة باغفال اللغة اللاتينية .. واستبدالها باللغة الانكليزية » والصحيح : استبدال اللغة الانكليزية باللغة اللاتينية لان اللاتينية هي المدفوعة .

وكذلك قوله على الصفحة نفسها ايضا : « ان الانكليز باستبدالهم اللغة اللاتينية باللغة الانكليزية قد استبدلوا لغة اجنبية بلغة وطنية » والصحيح : ان الانكليز باستبدالهم باللغة اللاتينية اللغة الانكليزية قد استبدلوا بلغة اجنبية لغة وطنية » .

اذا علمنا ان هذا وقع في السنة الاولى من « الهلال » (١٨٩٢) عرفنا شيئا من تاريخ شيوع الخطأ .

بغداد ــ الجادرية

علي جواد الطاهر



الدكتور فوزي عطوي

الحرب والحب في شعر فوزي عطوي

بقلم الدكتور عيسى الناعوري

* * *

القوافي المجوحة

لبنان جريح ، تنزف دماؤه منذ اكثر من ست سنوات ، ولا يزال لون الدم والدمار يجلل يومه ، ويصبغ الامل في غده .

لبنان نازف ، والعرب يتفرجون ، والاساة عنه نائمون ، واسرائيل تقطع اوصاله في الجنوب ، ويهدد حياته في بره وبحره وسمائه .

لبنان الجمال الازلي شوهته الحرب الطاحنة ، واضاعت جماله ، وليس من يرحمه : لا من اهله ، ولا من جيرانه ، ولا من اشقائه .

ترى الى متى ستطول محنته ، والى متى يظل العرب نائمين عن مأساته ، شامتين بشقائه ! والى متى ستظل ارضه مباحة ، وسماؤه وبحره ؟ والى متى ستظل النيران الحاقدة تفتك بأبنائه وتدمر بيوته ومنشآته ، وتعطل الحياة في شرايينه .

* * *

رجعت الى ذهني صورة لبنان الجريح الممزق المشوه هذا ، وانا اقرأ ديوان الشاعر فوزي عطوي : « القوافي المجوحة » وقلت في نفسي : هل بحت قوافي فوزي عطوي او تجرحت الا من جراح لبنان ؟

هل ينسج الحب من شعري مآزره   والحزن يرضعني ، قلبا ووجدانا !

وكيف لا يبح الشعر ولا يتجرح في حنجرة بلبل من بلابل الارز ، وعندليب من عنادل الشاطىء الازرق الساحر ، وهو يرى العام تلو العام في ارضه الذبيح ، والدم يتلو الدم مطلولا ولا من يرحم الشباب تطحنه الحرب ، ويلوكه الحقد الاسود ؟

ستة اعوام ، وها هو العام السابع يتلوها ، ولا بصيص امل في ان يندمل جرح في لبنان ، او يعود العمران الى القصور والى البيوت التي صارت اطلالا تنعب عليها البوم ، وتنعق غربان السوء والشؤم ؟

قل للاشقاء يولونا اخاءهمو   ويمنعونا سلاح الحقد والصلف
نريد عون يد سمحاء تنقذنا   لسنا نريد تصاريحا على الصحف

رويدك ، يا شاعري ويا شاعر الجراح ! الا تنتظر ممن تلومهم بالاشقاء هذا الذي تطلبه منهم ؟ فلو كانت لهم قلوب تعرف الاخاء ، لما منعوه عن لبنان في محنته .

ان كل ما لديهم هو السلاح يضعونه بسخاء في ايدي المتحاربين ، وهو تصاريح الصحف التي تعالج الجراح بالكلام .

وما دام الامر كذلك ، فماذا يبقى لأبن لبنان الذي يحب ارضه ، ويحب ابناء ارضه ، غير الاسى والدموع ؟

وطني الفقير لي تحيبي   وترق للجفن السكوب
لم يبق لي غير الدموع   تقص في الهدب الكئيب
ضيعت المنية الجمال   وادت اشذاء الطيوب
كفنت بالموت المرير   مرابع الحلم الخلوب
وكفرت بالقيم العلى   وسخرت بالخلق الرحيب
وعميت الا عن خطوب   ساعيات للخطوب
وعن المآسي الراقصات   على مناحات الشعوب
السلوم يا وطني ؟ الا   تاهت خطاي على الدروب
ومضيت استسقي سراب   الوهم والامل الكذوب

ولكن مصيبة لبنان ليست كلها من الخارج : الخارج ازم النار ، وراح يتسلى برؤية الحريق ، ولكن النار اشتعلت من الداخل ، ومضت تطمع الحاسد وتشمت العدو ، وابناء لبنان لا يجتمعون ليرابوا الصدع ويردوا كيد الحاسدين الى نحورهم ، وشماتة الحاقدين الى صدورهم . ابناء لبنان راضون بجراح لبنان ، وتمزيق لبنان ، والمزيد المستمر من جراح لبنان ومن تمزيق لبنان:

نهشود يا وطني ، ولم   نعوزهمو اشداق ذيب

فتلوك ، ما رفت لهم ... هين على وقع الوجيب
فرابع الحلم النفسي ... حرائق الحقد الرهيب

حزن فوزي عطوي على مأساة لبنان هو حزن الندى على الزهرة الذابلة ، وحزن البلبل الفريد على الغصن المجرد من نضارته واوراقه ، وحزن الحديقة على ازهارها وورودها التي سقطت اوراقها الحلوة ، معفرة بالتراب !

واليوم لم تلتفت في الارض سوسنة ... الا لتبكي بلواهـا وبلوانـا

ومن اعماق قلبه ، يهتف بأبناء لبنان ، لبنان المجد المضيع :

لبنان ، لبنان ! ما للنار تلتهنا ... قذائف الحقد طغيانا وعدوانا
ما للطوائف تخزي امر خالقها ... فليس تعرف انجيلا وقرآنا
واخجلة الذين اذ تجار هيكله ... يردون باسمك ابناء واخوانا
إانت لبنان ! يا مجدا نضيعه ... ما كان اسلاف في الدنيا واشقانا

مأساة لبنان اخت مأساة فلسطين ، وقد وقعت المأساتان ، والعرب عنهما في شغل شاغل بالخلافات تؤج نيرانها هنا وهناك ، والخصم وحده يسرح ويمرح في الميدان شامتا، مستفيدا من جميع الخلافات التي لاتنتهي.

وهل سيقف الامر عند ضياع فلسطين ولبنان ، اذا استمر الحال هو الحال ؟

ليت قومي يستفيدون من العبر !

وبعد ! في المقدمة التي كتبها الشاعر فوزي عطوي لديوانه هذا الذي صدر عام ١٩٧٩ ، يقول الشاعر : «لعل من مفارقات هذه الايام الحزينة في تاريخ لبنان وفلسطين والامة العربية جمعاء ، ان يتبـالل هتاف شجي من خلال ضجيج القذائف وانين الضحايا ، فيقول الناس : هاكم ديوان شعر فاقراوه ! ولكن متى عرف الناس ان هذا الذي بين ايديهم انما هو بعض تجسيد لمواقف انسانية وقومية تجلت بازاء انين الضحايا وضجيج القذائف ، ادركوا ساعتئذ ان هذا اوان الشعر المغموس في آهات هـذه الامـة » .

فالديوان اذن ليس كلاما منظوما ، ولكنـه جراح ويحترق بمأساتهما معا . وقد عبر الشاعر عن كل ذلك تغور ولهيب يندلع من قلب يحب لبنان ، ويحب فلسطين، اصدق تعبير وانبله .

الموج في جزيرة العيون

ونمضي مع ديوان « المـوج في جزيرة العيون » الصادر عام ١٩٨٠ عن دار الرازي في بيروت للشاعـر والمحامي الشاب فوزي عطوي ، وقد كتبت صفحاته بخط اليد بالرقعي الجميل ، وكل كلمة فيه مشكولة شكلا يكاد يكون تاما ، حتى عناوين الفهرس ، وخصص ريعـه لجمعية الصليب الاحمر اللبناني، مثلما خصص ريع ديوان « القوافي المبحوحة » لجمعية الهلال الاحمر الفلسطيني .

على الغلاف الاخير ، اقرا تعريفا بالشاعر ليس فيه تاريخ ميلاده ، ولا فيه شيء عن دراسته ، ولا عن عمله ، ولا عن انتاجه الادبي ، وما اصدره من دواوين . ولكن فيه بعض التعريف بالشاعر من خلال ادبه فقط . وفي هذا التعريف اقرا ما يلي :

« فوزي عطوي وحده رابطة . فان فيه من الحيوية الدفاق ما يكفي لاتيان العمل الكبير . فهـو الشاعر ، والكاتب ، وابن المجتمع ، ورجل القانون . اذا خلا ناظم فالثورة فيه ، والرقة فيه ، وفيه الاطلالة الميسورة على الوجود . واذا قعد لكتابة ، فبشراسة المقتنع يكتب وبعناد المؤمنين . واذا وقف لخطابة ، فكأن سحبان مر من هنا .. وفوزي عطوي يمثل جيلا من المعاناة ، جيلا من الثـورة الرافضة بتعقل ، ويتطلع الى مناظرة القمم ، وليس كالقمم ما يستهوي الطامحين .

★ ★ ★

اترانا عرفنا فوزي من خلال هذا الذي اقتبسه هنا من خطبة المحامي عصام كرم في الاحتفال بتقليد فوزي وسام الارز الوطني ؟

ليس هذا كافيا ، ولا نرضى بان يكون كافيا . فنحن لا نصدق الا اذا وضعنا اصابع في مغارز المسامير ، وفي فتحات الجراح النازفة ، لنقيس مدى عمقها ، وحرارة الدم المنبجس منها . عند هذا فقط نصدق . وهذا ديوان فوزي عطوي الجديد امامنا ، وكله قصائد حب ووجد ، وقصائد رقة واناقة ، يبدو لنا من خلال قراءتها ان فوزي شاعر انيق رقيق حقا . ولكن ما هو اهم من الرقـة والاناقة ، ان فوزي « شاعر انسان » تترقرق الانسانية في ثنايا شعره، ومن خلال ابيات الغزل والحب في قصائده.

القصيدة الاولى في الديوان الجديد عنوانها « اليوم عدت اليك » ويستهلها الشاعر بقوله :

اتصدقين بانني اكتب ... ما كان قبل اليوم لا يكتب
ارجعت للينبوع رقته ... ورجعت من سلساله اشرب

الغزل والحب من الاشياء المالوفة جدا في الشعر ، ولا يكون الشعر شعرا حتى يكون عاطفة تنثال ، وحسا يتوقد ، وسلسالا يترقرق . ولكن الحب لا يكون جميلا وفاعلا ومؤثرا حتى يكون هو « الانسان » وهو « حس الانسان » .

ومن خلال نجوى الحب الحنون ، نقرا قول الشاعر في ثنايا القصيدة عينها :

انسيت اني الحلم اذ ارضى ... وباني الغفران اذ اغضب
واحرقتي من نفسي الولهى ... واشقوتي من قلبي الطيب

الحلم في الرضى ، والغفران في الغضب : هذا المعنى جميل وجديد في شعر الغزل ، لانه يصدر من قلب « انسان » لا من عاطفة عاشق ولهان . وانا افرق كثيرا بين قلب « الشاعر والانسان » وقلب « العاشق الولهان » ولا ادخل في التفاصيل وفي بيان الفوارق ، لانني احسها

بعمق ، ولا احب ان اسيء الى قدسيتها بتمييزها بالالفاظ .

يعود الشاعر شاعرا عاشقا كثيره من العاشقين ، حين يختم قصيدته بقوله :

اليوم عدت اليك لا تسلي   هل بعد لي من جبنا مهرب
ما ضاع منا لم يكن عمرا   ايام ذاك العمر لا تحسب

ان هذا من كلام الشعراء العشاق ، ومن الغزل المألوف . واما « الحلم في الرضى ، والغفران في الغضب » فشيء آخر .. هو الحب ، ولكنه فوق الغزل والعشق. وليس من الحتمي ان يخلو كل غزل مألوف من الجمال والرقة ، ومن جدة العبارة واناقتها . تظل الرقة ، ويظل الجمال والاناقة حين يعرف الشاعر كيف يعبر عن عاطفة وعن تجربة حية ، بالعبارة الشاعرة ، وباللفظة الشاعرة .

وفوزي عطوي غني بالشاعرية ، حسا وعبارة ولفظة

* * *

في القصيدة الثانية من الديوان ، وعنوانها « الوتر القدسي » يقول الشاعر مناجيا من يحب :

هل كان نيساننا ايماءة عبرت   هل كان غيمة صيف ضمها الافق
ام كان نيسان فوق الحرف تكتبه   وكان فوق جبين النجم يأتلق

ليس هنا غنى في الشاعرية فحسب ، ولكنه الغنى الذي ترافقه الاناقة ، وتهدهده حلاوة الموسيقى . واناقة وموسيقى ايضا قول الشاعر في ختام القصيدة :

غنيت اشرف الحاني ، فكل سنا   اضحى من الوتر القدسي ينبثق
ما كان للفجر ان يجتاحه غسق   وبعد لم يرتسم في افقه شفق

في بعض الاحايين ، وانت تقرأ الشعر ، لا تقف لتسأل عن تركيب العبارة وما يمكن ان تحمله الالفاظ من معنى كبير او صغير لانك تحس المعنى في اعماقك ، ولا تبحث عنه في التركيب وفي الالفاظ : اناقة العبارة. وموسيقيتها تخطفك من صيغة الكلمات ، وتنسيك تركيب العبارة ، فلا تعود تذكر ان جميع الالفاظ موجودة في بطون القواميس . فالقواميس مقابر للالفاظ الجامدة ، في حين ان الالفاظ هنا ترقص وتغني للحياة :

اين من حبي لحن ذائب   في كياني : يا فما يهفو لفم

هنا نداء من لون جديد ، وطعم جديد : « يا فما يهفو لفم »، فيه الحنان ، وفيه الرقة ، وفيه الغنى الموسيقي ، وفيه الخيال الملون الموهوب المترف . وهذا البيت من قصيدة « الحزن والقيثارة » ، وفي هذه القصيدة عينها ، يقول الشاعر :

يا التي لم تهو الا قممي   لست القاك على غير القمم
ان حبك الحب مثلي نغما   اين لي مثلك في الحب نغم

ومن جديد ، نعود الى الانسانية والى الخلق الناعم في الشعر ، فاذا نحن مع الشاعر في قصيدته « اضراب على الورق » حيث يقول :

يا علبة الروح لو احزنت اغنيتي   ما كنت احقد ليس الحقد من خلقي

في هذا البيت الصغير الكبير تجتمع ميزتان شعريتان لطف الصورة ورقتها في « احزنت اغنيتي » ونبل الخلق في عجز البيت كله . والشعر والحقد ضدان لا يجتمعان: الشعر حب واحساس انساني ، والحقد ظلم وسواد في النفس يترفع عنهما الشعر ، ويأباهما خلق الانسان .

وفي قصيدته « كرامة المهزوم » يقول الشاعر :

انا ما رجعت الى رحابك شاكيا   متعثرا في حبي المتهدم
لكنما نبل القلوب يصونها   فترى الوفاء احق بالتكريم
غيري ينافس او ينافس في الهوى   ولقد يبوح بانة المحروم
اما انا ، فلقد حفظت عن العلى   الا ابيع كرامة المهزوم

الحب لا ينسي النبل ، ولا الوفاء ، ولا الكرامة ، وكلها مجتمعة في اربعة ابيات من قصيدة واحدة ، لتبدل على ان هنالك انسانا ، قبل الحب وبعده .

* * *

ومرة اخرى نعود الى العبارة الموسيقية التي تدغدغ الحس ، فنقرأ قول الشاعر في قصيدته « انا ربيعك » :

انا ربيعك لم يبعثا لنا حلم   لو لم تذيبي على اعطافه اللهبا
اما عقدنا على نيسان عمر هوى   لا رق نيسان لولاه ولا عذبا
ما نغمة الحب الا ذوب اغنية   تاذب الحب اذ رقرقتها طربا
نثرت بعض شموخ الحب في نغمي   فرحت انثر في الحاني الشهبا

لن امضي مع الديوان الى نهايته ، فهذه قصة تطول ، وبعض ابيات الديوان يدل على جميع قصائده ، احلام هوى ، واحاسيس دافئة ، ونغمات موسيقى ، وزخات من انسانية ونبل .

هذه خلاصة ديوان « الموج في جزيرة العيون » الذي تفضل الاخ الشاعر فوزي عطوي فاهدى الي نسخة منه ، من لبنان الجريح ، وتكرم الاخ الكبير الاستاذ اكرم زعيتر فاوصلها الي كدابه في ان يمتعني باكرم الهدايا .

وشكرا لاكرم . وشكرا لفوزي على الهدية الشعرية الرقيقة !

عمان ــ الاردن   عيسى الناعوري



ايليا ابي ماضي

مع أبي ماضي في قصيدته الدمعة الخرساء

بقلم الدكتور متولي محمد البساطي
مدرس الادب والنقد بكلية اللغة العربية بالمنصورة

* * *

قصيدة « الدمعة الخرساء » احدى قصائد ديوان « الخمائل » لايليا ابي ماضي . وقد تناول فيها حادثة انسانية تمثلت في موت صبية في ريعان شبابها ، وما اتصل بذلك من التفجع عليها والنواح والعويل . واتخذ الشاعر من الحادثة منطلقا الى عدة محاور كيان اثر الحادثة على النفس الانسانية وعلى الوجود المحيط بها ، حيث الارتباط القوي بين النفس والوجود الخارجي ، كما انطلق الى معراج التامل والنظر في الحياة ونهاية الانسان. وفي خلال ذلك يعرض لعاطفة الحب ، ويتناولها تناولا شاعريا فلسفيا وهو يبدأ القصيدة بقوله :

سمعت عويل النائحات عشية   في الحي يبعث الاسى ويثير
يبكين في جنح الظلام صبية   ان البكاء على الشباب مرير
فتجهمت وتلفتت ملتاعة   كالظبي ايقن انه ماسور
وتحيرت في مقلتيها دمعة   خرساء لا تهمي وليس تغور

وبعد ان ذكر الحدث صور ما اصاب فتاته من التجهم والتلفت والارتياع ، وما تبعه من ظهور دمعة خرساء في مقلتيها ، واتخذ من « الدمعة الخرساء » عنوانا للقصيدة .

ويخيل الينا ان تلك الدمعة الحائرة الخرساء انسان له احساس وشعور الى جانب ان الانسان في موقف المفاجاة والروع لا تخرج حالته عن حالة الدمعة في عيني هذه الفتاة من التحير اولا ثم الصمت الذي يجعله هو والاخرس سواء .

ويقدم الشاعر لصوره الخيالية بصورة واقعية كانت هي الاساس الذي بنى عليه تاملاته ، وهي صورة مستمدة من البيئة الشرقية التي تطالعنا في شعره بصفة عامة ، فالبكاء على الميت بالصورة الواردة في البيتين الاول والثاني من اجتماع النائحات وعويلهن والتفجع في مرارة على من مات في ريعان الشباب وميعة الصبا ذلك مظهر من مظاهر الحياة الشرقية لا الامريكية حيث كان يقيم في مهجره . ويربط صورة الفتاة في ارتياعها بصورة الظبي وقد احيط به فلم يستطع مهربا ولا نجاة ، وهي صورة فيها حيوية الى جانب ما تحمله من ايحاءات .

واستطاع الشاعر ان ينقل اهتمامنا من الحدث الاول وهو موت الصبية الى حالة اخرى استاثرت فيها فتاته باهتمامنا ، لان تصوير الفتاة بالظبي وقد احيط به يبرز الرعب والفزع الذي استولى على الفتاة ، ثم يضيف الى الصورة السابقة صورة اخرى تبرز الفتاة في حالة من الذلة والانكسار والتخاذل امام احداث الحياة :

فكانها بطل تكنفه العدى   بسيوفهم وحسامه مكسور

واشتركت الصورتان في ابراز الوجوم الذى نخيم على الثلاثة ، فالبطل في حالته والظبي في حالته كلاهما صامت واجم يفيض وجومه على الكون من حوله ، ويلف مظاهره ، فتتساوى الالوان والاشكال ، والانسان في هذه الحالة يفقد القدرة على الاحساس بالكون من حوله بعد ان فقد القدرة على النطق والتمييز بين الاشياء :

وجمت فامسى كل شيء واجما   النور والاظلال والديجور
الكون اجمع ذاهل لذهولها   حتى كأن الارض ليس تدور
لا شيء مما حولنا وامامنا   حسن لديها والجمال كثير

لقد كان الشاعر في البداية يمزح ويضحك مع فتاته فانقلب شعوره الى الحزن والتجهم نتيجة لانقلاب شعور الفتاة ، وظل الشاعر في القصيدة يتارجح ما بين عاطفتي الحزن والسرور وعلى الرغم من ان حالة السرور والابتهاج هي التي جمعته بفتاته ثم طرات عليها الحالة الاخرى نجد الشاعر في بداية القصيدة لا يشير الى ذلك ، وانما يقرع الاسماع بالفاظ وعبارات تحمل طابعا قاتما : عويل النائحات ــ عشية ــ الاسى ــ يبكين في جنح الظلام ــ بكاء ــ مرير ــ تجهمت ــ تلفتت مرتاعة ــ دمعة خرساء .
ثم يختم المقطع الاول من القصيدة بقوله :

كانت تمازحني وتضحك فانتهى   دور المزاح فضحكها تفكير

طهر الحب

تمايل الزهر نشوانا بنشوتنا ... كانما عب بعضا من حبانا
وراحت الطير تلهو حول هالتنا ... جذلى تشاركنا الحان نجوانا
ولاح بالافق نور ليس يحركه ... الا محب غدا بالله هيمانا
لما طوتنا تباريح مولهبة ... تاججت قبلا تحتار تهتانا
ادركت اني وطهر الحب يجمعنا ... برغم طيني غدوت الان انسانا

حلب ـ ص.ب ٥٦١٧

انور عدي

فيشعر المتلقي بوقع المأساة عليهما ، وهو بهذا يفيدنا ان حالة السرور والابتهاج انزاحت الى خلفية الصورة وحل مكانها حالة من الحزن والانقباض ، فيكون موقف الشاعر وفتاته من الحياة انعكاسا لهذا الشعور .

وكان تاثير الفتاة الحزين على الشاعر من جانبين : من شكلها الواجم ومن حديثها الذي يفيض ألما وحسرة .

وجاء انطباعه متفقا مع كل من الجانبين ، فالفتاة عندما رجمت صار كل شيء واجما ، وصار كل شيء ذاهلا لذهولها . وعندما اختلطت عليها الامور فلم تدرك للحياة حكمة ، وغابت عنها الحقيقة لانها رات حياة الانسان تنتهي في لحظة ويصير الى التراب لتموج فيه ديدان الثرى عندئذ ياتي فكر الشاعر انعكاسا لهذا المفهوم حين يقول عقب انتهاء حديثها :

وتوقفت فشعرت بعد حديثها ... ان الوجود مشوش مبتور

ويبدو شعره وكأنه فرشاة يغمسها في عواطف الفتاة ليصور لنا عاطفته هو ، وبذا اتحدت العاطفتان وامتزجتا .

وعندما صور الوجود جميلاً كي يصرف الفتاة عن خواطرها الحزينة القاتمة ادرك ان ذلك علاج موقوت لان فتاته ادركت قيمة الحياة في انها غرور ، ولذا يرجع مرة اخرى ليذكرنا بان شعوره ما زال هو شعور الفتاة ، وانه ما زال ينظر في نفس الاتجاه ، لقد عادا اخيرا يضحكان ولكن الضحك امر ظاهري يخفي وراءه احساسا بالحزن والمرارة :

فتبسمت وبدا الرضا في وجهها ... اذ راقها التمثيل والتصوير
عالجتها بالوهم فهي قريرة ... ولكم افاد الموجع التخدير
ثم افترقنا ضاحكين الى غد ... والشهب تهمس حولنا وتشير

وبعد فراقها وجد نفسه وحيدا قد اطبق عليه الضيق وكاد الليل يكتم انفاسه :

لكنني لما اويت لمضجعي ... خشن الفراش علي وهو وثير

ويبلغ الضيق مداه فيصرخ في ضجر مستبطئا ضوء الصباح :

يا ليل اين النور اني تائه ... مر ينبثق ام ليس عندك نور

ويخيل الي ان الشاعر في هذه القصيدة كان يهدف الى امرين :

الاول : ان يسري عن الفتاة ، باظهار الجانب المشرق للحياة ، لتعود الى مزاحها وضحكها .

الثاني : ان يقف وقفة تأملية امام احداث الحياة وحقائقها . وكانت نتيجة هذا التامل ان الحياة التي تنتهي في لحظة لا تستحق ان يوجد من اجلها الانسان وهذا هو راي الفتاة السابق عندما اعتراها الحزن والوجوم بعدما طرق سمعها عويل النائحات حيث قالت :

اكذا نموت وتنقضي احلامنا ... في لحظة والى التراب نصير
خير اذن منا الالى لم يولدوا ... ومن الانام جنادل وصخور

وهذه النهاية التي انتهى اليها الشاعر تتفق مع الاتجاه العام في القصيدة وهو التبرم والضيق . اما النظرة الباسمة المتفائلة فانها تاتي في المقام الثاني عندما يسرح الشاعر طرفه في مجالي الطبيعة مصورا حسنها بريشته البارعة حيث نجد روح ابي ماضي الشعرية التي يغلب عليها المرح والتفاؤل والتمتع بالحسن والجمال مع التجاوز عما في الحياة من المكاره والمنغصات :

فاجبتها لتكن لديدان الثرى ... اجسامنا ان الجسوم قشور
لا تجزعي فالموت ليس يضيرنا ... فلنا اياب بعده ونشور
انا سنبقى بعد ان يفنى الورى ... ويزول هذا العالم المنظور

ولقد كان للوراثة دور هام في هذا الاتجاه حيث يقول عن قومه :

انا من قوم اذا حزنوا ... وجدوا في حزنهم طربا

كما يبدو من رثائه لابيه انه كان بشوشا مقبلا على الحياة ، وفي هذا يقول عنه :

وكنت ترى الدنيا بغير بشاشة ... كارض بلا ماء وصوت بلا لحن

واكد ذلك طبيعته التي تنزع الى حب الطبيعة والتغني بمظاهرها ونزعته الانسانية ، ولذا نراه في شعره محبا للحياة ومحبا للناس جميعا . وقد جمع في هذه القصيدة فلسفته في الحياة ونظرته الى جانبيها .

وعندما نرى نزعة الحزن تسري في تضاعيف القصيدة فاننا بذلك نطلع على الجانب الاخر من نفسية الشاعر .

وقد غذى نزعة الحزن عنده الروح الرومانسية التي كانت تسري في شعراء الرابطة القلمية ، وهو احد الاعمدة التي قامت عليها تلك الجمعية الادبية ، والتي كان لها اثر بعيد المدى في الادب العربي شعره ونثره .

المنصورة ـ مصر ... متولي محمد البساطي



سعيد ابو الحسن

سنديان على القمم
سيرة ذاتيّة

بقلم سعيد ابو الحسن

✿ ✿ ✿

(٤)

في تلك الفترة الممتدة من ١٩٢٣ ــ ١٩٢٥ وفد وباء الجدري . ووباء الجدري كارثة مخيفة ، كنت ارى آثارها في الوجوه الكثيرة المنقوشة من الاجيال السابقة ، فمن ينجو من الموت لا ينجو من التشويه . ولا ادري كيف تيسر تطعيم تلاميذ المدارس ، تلقيحهم ضد الجدري ، ولا ادري لماذا لم تقم الحكومة بتلقيح الجميع ما دامت تملك اللقاح ــ هذه المشكلة لا اعرف كيف حدثت . كل ما اعيه منها هو ان اربعة من اخوتي : اخوين واختين اصيبوا بالجدري وانا حصلت على اللقاح لانني تلميذ ، وكنت لهذا السبب اقوم بخدمة اخوتي المصابين المعزولين في الغرفة الشمالية الشرقية من بيتنا ، فاقدم لهم الطعام او بعض الخضر ــ ولا طبيب هناك ولا من يطببون ــ وكانت لي اخت هي التي ولدت بعدي مباشرة . كنت احبها كثيرا ، فهي شريكة العابي ، وهي صديقتي ، وهي خصمي عند اللزوم ، وكانت آية في الجمال والذكاء .

وكان لا بد من ضحية تخرج من دارنا ــ فكانت هي الضحية ، توفيت وكانت اول صدمة عاطفية حزينة عميقة في حياتي . لقد بكيتها وكان بكائي اياها عن بكاء العمر كله ــ اذ انني نادرا ما بكيّت بعد ذلك .

ونجا اخوتي الثلاثة الاخرون : الاخت بتشويه ذهب بجمالها ورونقها ، والاخوان بلا اي اثر للجدري تقريبا ــ وعدم اصابتي لانني طعمت ضد الجدري على الرغم من احتكاكي باخوتي المصابين ، جعل اهلي وغيرهم يؤمنون باللقاح الوقائي ضد الجدري ، وبدأ شعاع من العلم يتسلل الى العقول التي كانت تنسب كل شيء الى القضاء والقدر ..

قضية ثانية كانت تزعجني في قريتنا ــ في بلادنا عموما ــ هي كثرة الولادات ، فكل سنتين تقريبا كان يولد لي اخ او اخت ، وكانت والدتي المرهقة باعمالها المنزلية، ترهق اكثر فاكثر بالارضاع وزيادة المسؤولية ، وكانت المراة التي تلد تقضي اربعين يوما نفساء ، لا تقوم خلالها باي عمل تقريبا ــ والتي تعمل خلال ذلك للطفل الوليد وللبيت هي الداية المرهقة التي تقوم بالتوليد وبكل الاعمال الاخرى ــ وكان كل طفل ولد على يدي داية يدعوها « ستي » بعدما يكبر . ومصيبة المصائب هي ان طعام النفساء خلال الايام الاربعين مكون من الثوم وحده ؛ اكداس من الثوم تقشر وتطبخ مع البيض واللحم المقدد ، او اللحم الطازج ، وتتناولها النفساء ، ويتناولها معها كل افراد العائلة ، لعدم وجود من يطبخ لهم طبخا خاصا بهم ؛ ورائحة الثوم تملأ البيت وتملأ فضاء القرية ، وهم ينسبون اليه فضائل لا تحصى ، وانه هو الذي يقى النفساء جميع الامراض ، لفقدان الطب والاطباء . والى جانب الثوم المزعج ، كان هناك شراب حار لذيذ يدوم اربعين يوما ايضا : هو المغلي ، او شراب خليط من البهارات : الزنجبيل مع القرفة مع الخولنجان ، مع اليانسون ــ وكانت هذه البهارات تدق وتغلى في ابريق كبير من الفخار وتقدم للنفساء والزائرين في طاسة يرش فوقها الجوز الابيض الممتاز طبقة كثيفة ، ويؤكل الجوز ويشرب المغلي بالملعقة : لونه عنبري مشوب بالبنفسجي ورائحته عطرة وطعمه لذيذ ــ فكانت لذة المغلي تنسيني ازعاج الثوم ــ وكان الزوار الذين يأتون للتهنئة بالمولود ويشربون المغلي (ينقطون) المولود بوضع بعض النقود في طاسة المغلي بعد ان تفرغ ــ وكثيرون منهم لم يكونوا يفعلون ذلك ، اما لكونهم اقارب ، واما لانهم لم يسبق ان نقطوا من قبل اهل الطفل .

وكنت الاحظ ان والدي ــ بحكم عمله بالتجارة ــ يغدق على بيتنا بحبوحة نحسد عليها : فالبهارات يجلبها

من دمشق بكمية كبيرة ـ والجوز بالصناديق ـ والبرتقال والتفاح بالصناديق ، والكعك الشامي والحلويات الشامية الاخرى كذلك .

كان بيتنا بعيدا عن القرية واقعا الى الشمال منها ، فوق هضبة صخرية ، تحيط به الكروم وثلاث برك احداها امام بيتنا تماما اسمها بركة « ام خرج » لكونها مؤلفة من قسمين كانهما عينا الخرج ، وبركة «منيفة» وهي عميقة مستديرة وتستعمل مياهها للشرب ، وهي شمال غرب بيتنا و «بركة الغنم» وهي غربي بركة منيفة تفصل بينهما طريق عالية . وعلى جدار بركة الغنم الغربي اشترى والدي كرما ، وعلى جدارها الجنوبي يقع بيدرنا ـ ثم اجرى عملية تبادل مع احد شيوخ القرية فاعطاه كرما لنا يقع شرقي البلدة وهو اقرب الى داره واخذ منه كرما يجاور كرمنا .

وكان جمع الكرمين على هذا النحو واسمهما معا « كرم الفضيلي » ، نسبة الى أمير عربي كانت آثار قصره تظهر قريبة من هناك ، كان ذلك اهم عمل يقوم به والدي في ترسيخ حياتنا الاقتصادية الى جانب اهتمامه الكبير بتربية المواشي : الغنم والماعز . وهذه المواشي ، كانت توضع لدى رعاة من البدو مقابل حصة من النتاج كما تقدم باستثناء عدد من الماعز ، كان يبقى حوالي القرية ، ويؤخذ منه الحليب واللبن والسمن اللازمة للعائلة ـ الى جانب البقرات التي كانت تعيش في البيت عيشة الدلال والترف . .

وكانت العادة في القرية ، لتجميع الحليب والاكثار من السمن ، ان تجرى عملية مقارضة بين النساء ، فتأخذ ربة البيت حليب المتقارضات معها اسبوعا او اسبوعين ، وتعطيهن حليبها مثل هذه المدة ، ويخططن بالكلس الابيض على الحائط كميات الحليب العائدة الى كل من المتقارضات ـ لان ذلك كان قبل عهد الكتابة لدى النساء .

وكنا ننعم بانواع من اللبن لذيذة نظيفة تغري بالاكثار منها : فالى جانب اللبن الخاثر (الرائب) كان هنالك لبن الظرف (وهو الذي يحفظ في جلد نعجة نظيف يفرز الماء والمصل من مسامه ويغسل بالماء ويكون معلقا ليسهل غسله باستمرار ويكون لبنه بين الرخاوة والشدة اقرب ما يكون الى ما يدعونه « اللبنة » في لبنان ودمشق) ـ وكان هنالك اللبن (القنبريس) حسب لفظنا ، ولعله الانبريس او اللنبريس حسب لفظ المدن ـ وكان يصنع من الحليب الموضوع في جرة كبيرة يضاف اليه الملح ، ويفرز ماؤه من ثقب في مقدمة الجرة السفلى ، مسدودة بعود صغير ، ويفتح هذا الثقب بصورة دورية فينزل منه الماء المتجمع في اسفل الجرة ، ويتحول الحليب الى لبن لم اذق بعد تلك الايام اطيب منه . وتغسل الجرة باستمرار من الخارج ويرفع ما يعلو وجهها من قشرة تتكون من تفاعل الملح بالحليب ـ ويكون فم الجرة مغطى بقطعة من الشاش الابيض ، تغسل باستمرار ، وتعاد الى مكانها ربطا حوالي عنق الجرة . ولبن الكيس وهو اللبن الخاثر يوضع في كيس ليتحول الى « لبنة » .

كل هذه الانواع من اللبن يكون زبدها فيها ـ وهناك اللبن القطيع هو جامد اللبن المسحوب زبده ـ المخيض او الشنينة ـ وهذا النوع من اللبن كان يحفظ في جرة ويغطى بالزيت ، كما هو احيانا ، ومقطعا الى كرات صغيرة ـ زناكل ـ اكثر الاحيان . ومنه يصنع الكثا ـ الاقط ـ وهو اللبن المجفف تحت الشمس .

اما الكشك فيصنع اما من اللبن الرائب واما من الحليب والملح يمزج به البرغل ويغطى ويبقى عدة ايام حتى يتخمر ، ثم يعرض للشمس حتى ييبس ويطحن ويصبح جاهزا للطبخ .

بعدما تملك والدي الكرم الموحد الكبير ـ الفضيلي ـ اخذ اهتمامه يتحول من التجارة الى الزراعة ـ وصار شغلنا الشاغل تعزيل الكرم من الحجارة ، وبناء جدار من حجر البازلت يحيط به من جميع الجهات لحمايته من الحيوانات ومن السارقين .

وكان الخطر الذي يتهدد نشوء الكروم والبساتين عندنا هو البدو ـ فالبدوي يكره ان تسيج الارض وان تتحول من مراع الى كروم وبساتين ـ فالمرعى في متناوله ولمصلحته ؛ اما الكرم والبستان فليس له فيهما نصيب ـ وهو يميل الى التخريب ، وحتى بعدما يصير الكرم كرما ، يعدو عليه ويسرق من نتاجه ، ويحاول ان يزعج صاحبه ، طمعا في ان يجعله يتخلى عنه ، ليعود مرعى مرة اخرى : صراع بين الحضارة والبداوة يظهر ان امتنا مرت به مرات عديدة في تاريخها الطويل .

كنا نذهب جميعا الى الكرم ومعنا طعامنا وشرابنا ـ ننقل الحجارة ونناولها والدي وهو يبنيها صفا صفا ، وهكذا شهورا وشهورا متتالية حتى يقوم جدار كامل يستغرب الانسان ان يكون قد بناه رجل واحد بمعونة اهل بيته . وكان القسم الاول من الكرم مغروسا عنبا مثمرا ، اما القسم الثاني فقد غرس والدي قسما منه وابقى القسم الاخر سليخا لزراعة الحبوب والخضار والبقول . ولما صار القسم الثاني مثمرا عاد فجدد القسم الاول مستبدلا باغراسه اغراسا جديدة .

وبعد بناء الجدار والغرس تحول الى ازالة الصخور من الارض ـ فقد كانت صخور كثيرة منغرسة في انحاء مختلفة من الكرم ، وكان يقتلعها بالمخل (العتلة) وكثيرا ما يجزئها ، بكسرها ليسهل عليه اقتلاعها ، وذلك حفرا بآلات البناء المعروفة ، ثم يدق فيها الاسافين حتى تنفلق ـ وكان لديه من آلات البناء : المهدة ـ والشاقوف ـ والبيك ـ والترابيك وكان يلفظ الترتبيك ـ والبيك مدبب بسيط اما الترابيك فمدبب مضلع (له اربعة اضلاع كما يدل عليه اسمه بالفرنسية) . وكانت هذه

الالات قد تركها لوالدي البناؤون الشويريون (من الشوير في لبنان) الذين بنوا لنا القسم الحديث في بيتنا وهو كناية عن غرفتين بينهما ايوان مفتوح ، مع مطبخ ودرج سماوي يصعد الى السطح ، واصبح سطح القسم القديم متصلا بسطح القسم الحديث ، فصار المنزل من المنازل شبه الكاملة في قريتنا .

ولكي اكمل تقريبا رسم وضعنا ، ونحن على ابواب الثورة ، لا بد من ذكر بعض الحوادث البارزة في هذا المجتمع المتحرك كان اسم اللجاه ، ومعركة اللجاه ، وحرب اللجاه ، يدور على الالسنة ـ واعرف ان حملة شنت على اللجاه من قبل اهل الجبل لان عرب اللجاه قتلوا بعض اهل الجبل ، وسمعت عن معركة (محجة) ولكنني في الواقع لا استطيع ان اميز بين ما عرفته بالتذكر وما عرفته من خلال السماع والمطالعة بعد ذلك ـ ولهذا لا اقف كثيرا عند معركة اللجاه او محجة وآسف ان تكون معارك العرب الداخلية من جملة اسباب ضعفهم ومعوقات وحدتهم .

انما اذكر حادثة اخرى ـ داخلية ـ هي معركة صلخد . فقد اقتتل اهالي صلخد فيما بينهم : آل الشوفي (الشوافنة) وانصارهم من جهة ، وآل الشومري والجرمقاني وانصارهم من جهة اخرى . وقد ترتب على ذلك جلاء او اجلاء آل الشوفي عن صلخد ، التي فقدت ما يقرب من سبعين قتيلا . وقد رايت عددا من شبان آل الشوفي في بيتنا يقيمون مدة ، ويسهر عندنا اقاربنا واصدقاؤنا احتفاء بهم ، وينتقلون من بيتنا الى بيوت اقاربنا او اصدقائنا ـ وحينما يحدثون والدي يقولون « يا خالي » وهو كذلك ـ ثم بحثت عن ذلك فعرفت ان والدتهم من آل الصغير ، من عرمان ، وباعتبار ان آل الصغير وآل المتني في عرمان هم من عائلتنا وقد تبدل اسمهم خلال رحيلهم من لبنان الى حوران ، نسبة الى جد صغير لفت النظر بصغره المفرط بينما اهله مشهورون بالاجسام الطويلة العامرة ، ونسبة الى المتن الذي نحن منه ، فاصبح كل واحد من آل الشوفي كانه ابن اخت كل واحد من آل ابو الحسن ـ او الصغير ـ او المتني ـ وعادات وارتباطات عشائرية طالما قرانا عنها في كتبنا .. وعرفت عددا من فرسان قريتنا المشهورين لمناسبة هذه السهرات .

وكنت ارى في بيوتنا ضيوفا من آل ابو راس ، من الرحى ، واسال عن سبب قدومهم فاعلم انهم يسعون الى الصلح بين عائلتنا وآل نصر في نجران ـ لماذا ؟

لان احد افراد عائلتنا ـ سعيد الصغير ـ في السويداء قتله رجل من آل صلاح الدين ـ وهؤلاء يمتون بالقربى الى آل نصر ، وتقاليد الاخذ بالثار كانت تقضي بان يذهب رجال العائلة المسلحون فيداوروا (يرصدوا حسب التعبير الحديث) بيوت آل نصر في نجران ، ويضعوا علامات داخل بيوتهم ، ترمز الى مقدرة المداورين على قتلهم لو شاءوا ، فكانوا يضعون الفشك في اجران القهوة (المهابيج) او تحت راس الرجال النائمين ، او يطلقون بضعة عيارات نارية باتجاه بيوت معلومة ، ويعودون على خيولهم ليلا الى عرمان ـ اكثر من مائة كيلو متر ذهابا وايابا كانوا يقطعونها كل مرة . والعائلة الموتورة التي لا تداور الواترين تفقد اعتبارها بين العائلات . وكان آل ابو راس مشهورين بمزايا القضاة العشائريين ، مشهودين بحل المشاكل ، ولذلك كانوا يزورونا وظلوا كذلك حتى حلت المشكلة وعقدت الراية ، راية الصلح .

في تلك الايام ايضا كان والدي قد صفى شركته التجارية مع خالي وانصرف اكثر فاكثر الى العمل الزراعي ـ كما اسلفت ـ وفي احد الايام فوجئنا بزيارة رجل من قرية مجاورة عليه هيبة ووقار ـ ولا اذكر اسمه بسبب ما سياتي من حوادث . جاء هذا الرجل وعرض على والدي ان يشاركه في تجارة وقال لوالدي : «ان استقامتك المشهورة تغني عن كل اعلان ـ ولذلك ارى ان تضع ما سارسله اليك من بضاعة في احدى غرف بيتك وسترى انك تبيع وانت في المنزل ، تبيع بالجملة لتجار المفرق وتبيع بالمفرق عند اللزوم . واقتنع والدي وقبل بالشركة او وقع في الفخ ـ كما سنرى ـ وما لبث ان جاءت قافلة جمال محملة بضائع كدسها والدي في غرفة بيتنا الشمالية الشرقية التي كانت تمتاز بان لها بابا الى الخارج وبابا الى الداخل بطريق الايوان ـ واخذ يمارس عمله التجاري الى جانب عمله الزراعي ـ وقد اغراني مرة ما فيها من التين المجفف فاخذت منه بضع تينات واكلتها من دون استئذان والدي وانقضى عمري كله وانا متحرج من هذا العمل ولم اغفره لنفسي ـ مع انني متاكد من انني لو سالت والدي ان يعطيني تينا لاعطاني الكيس كله وحاسب شريكه به ـ فضلا عن ان التين الطازج كان يحيط بدارنا ويملأ كرمنا . ولعل هذا من العلامات البارزة في نوعية اخلاقي ـ الم يقل لي والدي : « الصدق اولا والصدق آخرا ، والامانة من الصدق » .

ليس من اجل هذا اذكر هذه الشركة ـ بل من اجل شيء آخر : فقد كان والدي يستوفي ثمن البضاعة ـ كما كانت العادة الغالبة آنذاك ـ اشياء عينية : كالسمن والحبوب والصوف ـ وكان يرسل ما يتجمع لديه الى شريكه ويسجل ما يرسله في دفتر ذاكرا التاريخ وعدد العبوات واسم الناقل صاحب الجمال ومقدار الاجرة المدفوعة له . وفي احد الايام قدم الشريك المحترم ليطالب والدي بثمن البضاعة : فاستغرب والدي وفتح الدفتر واخذ يقرا للشريك الكميات المرسلة وما يقابلها من ثمن بتاريخ الارسال .

وصعق والدي لانه تكشف له ان هذا الشخص المتزيي بزي رجال الدين ليس سوى محتال كبير ـ وادرك سر عرضه الشراكة عليه وتساهله المبدئي ، ورفضه ان

باخذ اي توقيع مقابل بضاعته مكتفيا بتلاوة الفاتحة . وكان لا بد من مقاضاته . فرفع الدعوى عليه ، او رفعها هو على والدي – لا اذكر ذلك – لدى المحكمة البدائية بالسويداء – وكان رئيس المحكمة السيد علي عبيد الشاعر الثائر المعروف ووالد الصديق الشاعر الاديب الاستاذ سلامة عبيد – وبعد عدد من الجلسات وسماع الشهود من الذين قاموا بنقل العينيات وتسليمها الى الشريك ، اصدر رئيس المحكمة قرارا لصالح والدي ، وكان قرارا مشهورا تحدث عنه الناس طويلا لطرافة الدعوى وندرتها في بلاد اشتهر اهلها بالصدق والاستقامة . وظلت صورة رئيس المحكمة العادل الذي وصفه لي والدي تداعب خيالي حتى سعدت بمعرفته بعد ذلك بنحو عشرين عاما ورويت الحادثة للاستاذ سلامة عبيد بعد ذلك بسنين كثيرة .. اما الشريك فسيجيء يوم ارد له فيه (الجميل) وانقذ من براثنه صديقا كان قد اوشك ان يقع بينها ..

تلك الايام ، ١٩٢٤ و ١٩٢٥ كنا نسمع همسا بما يقوم به الحاكم كربيه من مقاطعة الزعماء وعزلهم عن الشعب ومن سجنه للذين لايتقيدون بالمقاطعة، وتسخيرهم للعمل في رصف الشوارع والطرقات ، وتكسير الحصى الذي يفرش فوق الحجارة المرصوفة ، وفرض الغرامات الباهظة ، واتيان الاعمال المنفرة المختلفة ، وحضرت كولد طلمة ، اجتماعا كان يتحدث فيه رجل يرتدي اللباس المدني ويسمونه « الرحالة » ، ولم ادر ان هذا الرجل هو الذي ساقرا كتبه كبيرا – حنا ابي راشد .

وكنا خلال العطلة الصيفية نساعد اهلنا في اعمال الحصاد ونطارة الكروم نهاراً ، وانام مع والدي في الكرم ليلا وقد تولدت بيني وبين الكرم رابطة روحية عميقة فكنت الجا اليه ، واناجيه واتعرف الى دواليه واحدة واحدة ، حتى صار في مستطاعي ان اعرف نوع العنب من ورق الدوالي : فهذا احمر وهذا اسود وهذا سلطي او عجلوني ، وهذا عاصمي وهذا بلدي وهذا دربلي ، وهذا شموطي ، وهذا قاصوفي وهذا حلواني وهذا خلري (خضري) او ممسك الخ ..

ومن الحوادث المؤثرة في حياتي ، ما لقيته من عطف بنت صغيرة من عمري او تصغرني قليلا – فكانت تهتم بي تسقط اخباري من اخيها او من غيره ممن يرافقونني الى المدرسة او الى اي مكان آخر .

كنا طفلين في تفكيرنا وتصرفاتنا ، نحلم بالمستقبل البعيد ، نحلم بان نصبح شخصيتين بارزتين في القرية ، وليس امامنا يومذاك افق اوسع من افق القرية – لقد علمتني تلك الفتاة معنى الطهر والبراءة ، علمتني كيف يستمد الانسان القوة والطموح والمثابرة والاصرار على النجاح ، من رابطة روحية ، تقوم بينه وبين انسان آخر ، يتفاهمان ، يتحابان واذا كل شيء بينهما مشترك ، واضح نقي ، يحفز الى تخطي العقبات ، وتسلق الذرى ، نحو الهدف الاسمى ، نحو الكمال المطلق ، والجمال المطلق . بنت الجيران هذه ما انفككت اذكرها بالخير وسأظل حتى اخرج من هذه الدنيا ولا سيما ان ظروف وفاتها وافتراقنا سيأتي ذكرها في هذه الذكريات في وقت حدوثها .

وكانت هناك مناسبات نلعب فيها تمثيلية العريس والعروس – تلتقي مجموعة من البنات ومجموعة من الصبيان وينظمون مسرحية عريس وعروس – يقع الاختيار على العروس اولا، وتكون عادة اجمل الموجودات. والعروس تختار عريسها – وتمثل حفلة عرس كاملة ، غناء وضرب دفوف ، وانتقال من نقطة نسميها بيت والد العروس ، الى نقطة اخرى نسميها بيت والد العريس ، وتزف العروس الى العريس ، فياخذ بيدها ، ويجلسها الى جانبه بعض الوقت ، ويتحلق الاخرون في دبكات واهازيج جميلة ، ثم ينصرف الجميع وينتهي دور العروسين : بهذه الجلسة المشتركة ، في جو مرح – وكان ذلك يترك بعض الاثر في النفوس الحساسة ، فانا كنت اشعر نحو من تنتقيني عريسا لها – وما اكثر ما كان يحدث ذلك – بشيء من الخجل ، فينصبغ وجهي بالاحمر ، ووجهها كذلك كلما جمعتنا احدى المصادفات . وكان ذلك يثير شيئا غير قليل من الحسد والغيرة في نفوس بعض الرفاق ، ممن لا يقع عليهم الاختيار . فتحدث بيننا مشاحنات ، ومشاجرات ، وتهديد ، ووعيد ، ومقاطعة كثيرا من الاحيان .

وكنت اسهر بين الرجال عندما يكون لدينا ضيوف: فوجود الضيف يستتبع دعوة عدد من الرجال ، من الاقارب والجيران والاصدقاء ، وبعد تناول العشاء يمتد السمر حتى ساعة متاخرة من الليل ، وتدور الاحاديث حول المشاكل اليومية : الموسم ، المطر ، التعدي على المزروعات ، حالة الكروم ، ظهور انواع جديدة جيدة من العنب او البطيخ او غير ذلك ، وقد يتخلل ذلك رباب وشعر شعبي عن الحرب والحب ، والاخلاق ، او قراءة قصص عنترة ، وبني هلال ، والملك سيف بن ذي يزن ، والسندباد (من الف ليلة وليلة) .

وتدور الاحاديث عن معارك الجبل ضد البدو في سبيل الاستقرار والامن ورد الغزوات ، وقطع دابر السلب ، والنهب ، ولا سيما الاعتداء على الكروم والمزروعات ، وسلب المواشي بطريقة الغزو المعروفة . وعن معارك الجبل ضد الاحتلال العثماني ، ووصف البطولات الخارقة الفردية والجماعية . وكلما بدأ متحدث حديثه عن احدى المعارك جاء بالضرورة على ذكر المفزع الذي يجيء باعلى صوته طالبا النجدة . وكيف كان يخاطب القوم بالسؤال التالي : « وين راحوا النشامة ؟ » – «اين راحوا الشجعان » – « النشامة وين راحوا ؟ » – « مرخصين الروح مهببين الريح وين راحوا » – « اين راحوا الذين يرخصون ارواحهم ويجعلون الريح تهب في

الاتجاه المناسب » ـ والناس يجيبونه : لعينيك يا صايح. الشامة جوك يا صايح . (جاؤوك) (٢) .

ولا بد ان يجيئوا بخاصة على ذكر النار الموقدة فوق القمم : نار الحرب ، وهذه النار يقصد بايقادها ايصال الانباء الخطيرة باسرع وسيلة ممكنة ، في عصر ما قبل اللاسلكي والهاتف ووسائل الاتصال العصرية المتطورة الاخرى .

ففي اقل من ساعة توقد النيران على تمم : جبل الشوف ، جبل الشيخ ، تل القليب (في جبل حوران) فاذا كل البلاد التي يقيم فيها بنو معروف قد اخطرت بالجادث الداهم ، واتخذت استعداداتها في عفوية تكونت وسط التجارب والمحن .

وهكذا كانت النيران على القمم ، الهم المقيم لكل مواطن في هذه الديار ، يرقب رؤيتها باستمرار، ويستجيب لما ترمز اليه بلا تردد ، ويتحمل مسؤوليته بلا تذمر . انه الواجب ، الواجب الوطني القومي ، واجب الرجولة تجاه ذاتها وتجاه الحياة التي لا تصبح مستحقة الا بهذا التحفز الدائم وهذه الهمة المستنفرة ابدا .

من خلال تلك الاحاديث التي كنت اصغي اليها واستوعبها صرت اعرف كل شيء عن قريتي وتاريخها المشرف ، وعن عائلاتها ورجالاتها : عرفت تفاصيل معركة الخراب المشهورة ومعارك ممدوح التي سبق ذكرها ، وعرفت تفاصيل معارك أقرب عهدا منها وهي معارك عام ١٩١٠ المعروفة بحرب سامي باشا (سامي باشا الفاروقي قائد الجيش التركي في تلك الحرب) . عرفت مثلا ان بيرق عرمان (ويكنى بالبيرق عن مجموع المحاربين من القرية الذين يسيرون تحت راية حربية واحدة اسمها البيرق) هو الذي دهم جيش سامي باشا الفاروقي الذي كان معسكرا في قرية الكفر يستعد لغزو عرمان دهمه بهجوم مفاجيء ساعة العشاء ، فافسد على الجيش عشاءه ، واوقع في صفوفه خسائر فادحة فضلا عن الرعب والذعر اللذين استوليا على الجنود . وكيف انتقم الجيش عندما استولى على عرمان فيما بعد فاستدعى ثلاثة من آل صيموعة (وهي العائلة التي يتوارث ابناؤها حمل البيرق في عرمان جيلا عن جيل) واعدمهم رميا بالرصاص ونكل بالاهلين تنكيلا طورانيا جديرا بآل (ارطغرل) . وعرفت ان اهلنا استبدلوا بسلاحهم القديم الذي كان يحشى من فوهته ، والذي استعملوه طوال القرن التاسع عشر ، سلاحا جديدا له فشكة جاهزة تلقم امام المغلاق وتطلق في سهولة ويسر واسم السلاح الجديد المرتيني او الباليكي او بارودة ام زر ـ وقد شاهدت هذه الانواع الثلاثة خلال طفولتي في ايدي رجالنا حتى بعدما حلت البنادق الالمانية (الماوزر) ، والعثمانية (العصملية المعدل) محلها ، خلال الحرب العالمية الاولى .

ومن الاشياء الطريفة التي ساعرفها فيما بعد ان مصطفى كمال ، اشترك في معارك سامي باشا في الجبل ، وكان برتبة نقيب ، وهزم في احدى هذه المعارك . وهذا يدل على اتساع تفاعل الاحداث الثورية وتداعيها وتأثيرها في كيان الدولة المحتلة ، حتى لتضطرها الى استخدام كل قواتها للتغلب عليها .

عرفت المزيد من التفاصيل عن طريقة والدي في معالجة الامور وحسمها . عرفت انه كان قد تبنى مواقف محددة من كل مسالة ، وان هذا كان يسبب له مضايقات، ويخلق له خصوما حتى بين الاقارب الاقربين ، ولا سيما الذين لم يكونوا قد قراوا شيئا ، ولا سافروا ، ولا خالطوا الناس خارج محيطهم القروي الامي الضيق .

كان ـ مثلا ـ اذا التقى احدا من مواطنيه خارج الجبل لا يقبل ان يعامله على اساس مركزه التقليدي الموروث في القرية ، بل يعامله على اساس انه شخص عادي لا يعرف كيف يجب ان يتصرف في معاملة الناس . ويقوده ويفرض عليه طريقته في التعامل : طريقة الرجولة والاستقامة والصدق والكرامة . وحدثني عن طرائف حصلت بينه وبين اصحاب « الاختام » في القرية الذين كانوا لا يكترثون له ولامثاله من غير طبقتهم، ما داموا داخل جدران القرية وامام معارفهم واهلهم واقاربهم فيها ، حتى اذا وجدوا انفسهم مع ابي خارج هذه الجدران جعلوه قائدهم ورائدهم حتى يعودوا الى القرية ، فتعود حياة النفاق والتزييف والمظاهر الكاذبة ، الى السيطرة .

كان يكره الظلم ايا كان نوعه ومصدره ، وينتصر للمظلوم دونما نظر الى انتمائه الطائفي او الاقليمي ينتصر له حتى على ابناء قريته وطائفته وعشيرته .

فقد حدث مرة ـ على سبيل المثال ـ ان مدير ناحية تركيا في صلخد كان له عميل في قريتنا سلطه على الاهلين من الحضر والبدو ـ فصار يامر وينهي . يفرض الاتاوات على الجميع ـ وفي يوم من الايام جمع ابل عشيرة من عشائر البدو ـ رعاة الجبل ـ وحبسها في ساحة واسعة رافضا اطلاقها الا مقابل دفع مبلغ كبير ، ولم تكن العشيرة مذنبة في شيء : فلم تعتد على مزروعات ولا على حمى (٣) ـ وكانت ضوضاء النوق وصراخ اصحابها واستغاثاتهم تشق عنان السماء ، ولا من يجرؤ على التوسط ولا من يجرؤ على مجرد السؤال . وجاء وجهاء العشيرة الى والدي فاستنجدوا به ـ وشرحوا له الموقف على حقيقته، وحينما اقتنع بأن القصد هو الابتزاز دون سواه قال لهم : « اتبعوني » وسار امامهم حتى اتى موقف الابل ، وخاطب الغاصب في حزم ، طالبا اليه ان يخلي سبيل الابل فورا ـ فرفض مشيرا الى ان « سعد الدين » مدير الناحية التركي يدعمه . فتقدم والدي منه فهم الغاصب بأن يضربه بعصا من لوز تنتهي بكرة ويدعونها (الدبسة) فانتزعها والدي منه وصفعه على جبهته صفعة قوية تركت جرحا مكان

الى الشاعرة ثكلى

☆

قيثارة الشعر انغاماً والحاناً … وآية الفن ابداعاً وتبياناً
وايكة الادب المتئد وارفها … كانه وارف الفردوس فيناناً
غريدة الروض يا قمرية صدحت … فهيجت في صميم القلب اشجاناً
اليس يكفيك يا خنساء انك قد … ذوبت قلبك آلاماً واحزاناً ؟
فكم صبغت قوافي الشعر قانية … من الجراح وكم فجرت بركاناً ؟
كنت الوفاء بدنيا لا وفاء بها … وكنت في صفحة الاخلاص عنواناً
اليس تكفيك آهات قد انتزعت … من الشغاف وقد قرحت اجفاناً ؟
اليس يكفيك ان النوم يغمر من … قد فارقوا غير طرف ظل سهراناً ؟
فلست وحدك في الدنيا التي فقدت … حبيبها فبكته سراً واعلاناً
فكم سقينا كؤوس الحزن مترعة … وكم فقدنا حبيباً عز فقداناً ؟
وكم سهام الردى هدت اضالعنا … وحطمتها وريب الدهر ابكاناً ؟
والله ننزف حتى الروح اجمعها … لو كان يرجع هذا النزف موتانا
ان الذي هون البلوى وخففها … من ثقلها ووجدنا فيه سلوانا
بان مسرى الالى للقبر قد رحلوا … برغمنا انه لا شك مسرانا
فالعمر يجري الى ما لا رجوع له … وسوف يجرفنا الاعصار طوفانا

بغداد ـ ص.ب ٤٦٧ … باقر سماكة

الاصابع الاربع ، وانطلق البدو بابلهم وهم فرحون يهزجون « راية البيضا تغشى محمد » واحتفظ والدي بالدبسة للذكرى ، وظلت لدينا طوال وجودنا في القرية ـ ولجأ الزجل الى سعد الدين التركي . ولكن والدي شرح لهذا الاخير بلغته ما كان من امر « زلمته » فاقتنع . ولا سيما انه راى آثار الجرح في الجبهة وهي اقوى وسائل الاقناع في ظل قانون الغاب . .

احدث فقط عن الامور التي حدثت قبل معايشتي لوالدي . اما التي حدثت بعد ذلك فستأتي في مكانها من هذه الذكريات .

(١) المرحوم هو والد الاستاذ سعيد الصغير الاديب المؤرخ المعروف وقد سمي باسم والده لولادته بعد مقتله .

(٢) وصلت هذه الامور لي كتابي « بنو معروف بين السيف والقلم»

(٣) الارض الحمى ـ الممنوع رعاية المواشي فيها مدة من الزمن .

السويداء ـ سورية … سعيد ابو الحسن



الياس ندور

الشاعر الياس ندور يعزف لحن الماضي

بقلم عيسى فتوح

* * *

كما عاش الشاعر الياس ندور حياته بعيدا عن الاضواء ، لا يساهم في الحركة الادبية الا من بعيد ، كذلك رحل عنا بصمت دون ان تذكر الصحف خبر وفاته على الاقل ، فلم يكن حظه في موته بأفضل من حظه في حياته . لقد قضى نصف قرن يعلم اللغتين العربية والفرنسية في طرطوس ، يثقف الاجيال وينير عقولها جيلا بعد جيل ، يقرأ ويكتب ويصحح ويذيب صحته بين المحابر ومنابر التدريس ، واصلا ليله بنهاره ، ولما وافته المنية لم يتطوع احد من اصدقائه وتلامذته الكثيرين للكتابة عنه .

لم اكن اعرف الكثير عن حياة الشاعر المرحوم الياس ندور ، وقد التقيت به مرتين او ثلاثا في مقر اتحاد الكتاب القديم وتحدثت اليه ، ولما نويت الكتابة عنه ، ذهبت الى ذاتية الاتحاد لاطلع على محتويات اضبارته ، لعلها تمدني ببعض المعلومات ، واقرأ فيها سيرة حياته بقلمه ، كما هو مفترض ، فلم اجد فيها للاسف غير اخراج عن قيد نفوسه ، وسجل عدلي (لا حكم عليه) وغير طلب قدمه عام ١٩٧٢ لاتحاد الكتاب يقول فيه انه تقاعد من وظيفته في التعليم ، ويضع نفسه تحت تصرف الاتحاد للعمل في مجلة « الموقف الادبي » .. بالاضافة الى صورتين فوتوغرافيتين !

كل ما استطعت ان اعرف انه ولد في قرية «ساعين» بمحافظة طرطوس عام ١٩١٢ ، ودرس في اللاذقية حتى حصل على اهلية التعليم الابتدائي ، وكتب بالعربية والفرنسية ، ومارس التعليم بهما في ثانويات طرطوس حتى عام ١٩٧٢ ، حيث احيل الى التقاعد ، فانتقل الى دمشق مع اسرته . وانه بدا ينشر كتاباته في الثلاثينات ، عندما كانت الحركة الادبية لا تزال في بداياتها ، ثم توقف واعتزل الحياة الادبية ، مقتصرا على النظم والترجمة دون النشر ، فكانت حصيلته الشعرية ديوانا واحدا فقط صدر عام ١٩٧٩ بالتعاون مع اتحاد الكتاب العرب ، اسماه « لحن الماضي » وضم ستا وثلاثين قصيدة ، انتقاها من رصيده الشعري ، نقرت عيناه بهذا الديوان قبل ان يغمضهما الموت ، وغمرت الفرحة نفسه بمولوده الوحيد الذي انتظره طويلا ، وقد اهداه الى جميع الذين احبهم : زوجته وابنائه ، اهله وانسبائه ، صديقاته واصدقائه ، زميلاته وزملائه ، طالباته وطلابه .

تدور قصائد الشاعر في الديوان حول الوصف والغزل والطبيعة والوطنيات ، وجميعها تقريبا عمودية على ابحر الخليل ، باستثناء قصائد قليلة جدا ، كقصيدة « من منقذي » وقصيدة « الى ابنتي » اللتين حاول ان يجدد فيهما في الشكل فقط ، اما معانيه وافكاره فظلت كلاسيكية عادية وكذلك صوره وتشبيهاته والفاظه وتعابيره يقول في قصيدة من منقذي :

عيناك وارتعش الفؤاد
ورحت في عينيك
عبر الومض ، عبر الرعد
اغرق
واعب خمرهما ، اسافر فيهما
اسعى الى المجهول
والاحلام زورق .

وكثيرا ما كان يهتم بوصف المرئيات والالوان والروائح والمشمومات ، فهي تعكس رهافة احساسه ، وسرعة تأثره ، وشفافية طبعه ، ومرونته في الاستجابة ، كما في وصفه نحلة رآها في احد البساتين فراح يقول فيها:

حطت على روض مع المشرق ... تستاف عرف الفل والزنبق
تمتار ضرب الزهر مجنونة ... بالاحمر القاني وبالازرق
والابيض المعرس في فجره ... والاصفر المفرورق المونق
والقاتم المرشوش يزهو على ... عريشه المنتظم الشيق

وهو كشاعر نبت في الريف ، وعاش في كنفه طفولته وفجر شبابه ، لا بد الا ان تستوقفه مناظره الخلابة ، وحياة الفلاحين والرعاة فيه ، ينهضون مع الفجر ، ويخرجون الى الربى والوهاد ، ليزرعوا ويحصدوا ويغنوا ويعيشوا مع الطبيعة الخيرة المعطاء ... فلنسمعه يخاطب

الراعي وكلبه النشيط الامين الذي يلملم القطيع المشتت هنا وهناك :

قسر وليبدأ وراء القطيع بتسوب يهل اريج الربيع
وكلب وفي ذكي سريع ينط شمالا جنوبا امام
يلملم اشتات هذا الزحام

لم يقطع الشاعر المرحوم الياس ندور صلته بقريته الوادعة التي تنام وتصحو على كتف الجبل ، بل ظلت تلوح لناظريه كلما شط به النوى واقصاه البعد ، يحن الى امسياتها الدافئة ، وصباحاتها الندية ، ومياهها العذبة ، وطيورها المغردة ، ونسائمها المعطرة ، وبيوتها المبعثرة كانها قصيدة غزل فيقول :

يا حسنها قريتنا مزروعة في الجبل
كنجمة مصلوبة على جدار الازل
او عش نسر راصد طريدة في زحل
مساؤها زبرجد وفجرها من عسل
وماؤها مجنونة من كوثر سلسل
وريحها فاغمة بعنبر ومندل
ودورها منظومة قصيدة للغزل

وتؤلمه مشكلة الفلاح المضطهد في ريفنا ايام الاقطاع ، فهو يتعب كثيرا وينال قليلا ، يجوع ليطعم السادة ، ويعرى ليكسو الاغنياء ، ويزرع ليحصد المستغلون زرعه ويجنوا ثمرة اتعابه ، فيخاطبه قائلا :

سماؤك هذي الارض تزرعها تبرا فتمرع خيرا والربى جنة خضرا
وتقري جياع الكون خبزا وصحة وتكسوهم دفئا وانت الذي تعرى
فيا لك من شهم رحيم فؤاده يطارحنا حبا ، فنطرحه قهرا

وتهتز مشاعره الوطنية في قصائد مثل : « مجد العروبة » و « الفدائي » و « ثورة لاجيء » و « عاش الفداء » ، وينتفض كبرا ويثور غضبا على المستعمر الفرنسي الذي ضرب دمشق ، وجعلها طعمة للنيران عام ١٩٣٥ ، بأمر من القائد الفرنسي اوليفا روجيه ، فهبت دمشق لتنتقم وترد كرامتها المهدورة ، وتستعيد مكانتها تحت الشمس :

هبت دمشق فوا دمشق وصوت جلق كيف يهدا
وشت لنصرتنا الشآم من عرين العرب اسدا
فيحت بواكير الشهادة في فم الاحرار شهدا
الله اكبر لم نراع لسالب الاقداس عهدا
تأبى العروبة ان تذل وان تسام الخسف عمدا

ويتفطر قلبه الما على اللاجئين الفلسطينيين الذين تشردوا تحت كل كوكب ، لا مأوى لهم غير خيام مرقعة بالية من الخيش المزق . انه م في نظره وصمة عار في جبين الانسانية ، ولطخة سوداء لن تزول الا بعودتهم الى ديارهم المغتصبة ، ويستغرب كيف تستباح ارضهم وتنتهك حقوقهم ، ولا يهتز ضمير العالم ؟ يقول على لسان احد اللاجئين :

البرد يلذع اوتادي والريح تخلخل اوتادي
والماء المنهمر الجاري يغرق بالرعدة اولادي

ويصف الخيمة الذليلة فيقول :

يا دار المنفى يا داري يا دار الخيش المشدود
يا صرحا يبنى من عار عار الانسان المطرود

ويصل به المد العومي ، والغضب الوطني الى حرب تشرين التحريرية عام ١٩٧٣ ، فيعجب ايما اعجاب بنسورنا الابطال الذين حققوا المعجزات ، فتهاوت الطائرات الاسرائيلية على ايديهم كما الفراش ، ويفخر باولئك الجنود الذين عرفوا كيف يسددون صواريخهم الى قاذفات العدو بدقة واحكام ، فتراءت شعلا ملتهبة فوق اوضنا الابية :

نسورنا تقص في الضحى جدائل الغيوم
تخاصر الفخار في مسيرها الى النجوم
صاروخنا يطارد الميراج والفانتوم
يردف المسافة البعيدة البعيدة
وتقتنص الطيور في اعاليها بشر

ولم يكتف الشاعر الياس ندور بهذا ، بل احتضن ماساة المعذبين والمضطهدين في المجتمع العربي ، ووقف الى جانبهم ، وآلمه بؤسهم وشقاؤهم ، وكان الصوت الذي نطق بما كانوا يعانون من قهر وذل وعسف ومرارة ، وقد جسد هذه الوقفة ـ القضية في قصيدته «صرخة البؤس» فقال :

يا صرير الاسى هرقتك دوما ناشرا سر غيبتي وحضوري
باكيا ان بكيت دون دموع شاكيا ان شكوت دون شعور
تملأ الدار انة وحنينا ارى انت مولع بالحبور
ام تعلمت ان تكون رحيما يوم اليت ان تكون سميري
بعض يموت دون علاج وفقير يموت دون مجير
وايامى مشردات بسواك ويتامى على حصير حقير
وضعيف تدوسه رجل باغ وغريب مشرد مقسور
وكريم يصونه كف عات وبريء يدان دون نصير
آه لو كنت يا نجي بساطا او غطاء لسائح مقرور

كان الشاعر الياس ندور شاعرا انسانيا ، طيبا ، متواضعا ، ابيا ، كريم النفس ، رفيع التهذيب ، عالي الإخلاق ، محمود السيرة ، يحب الناس على اختلاف نزعاتهم وميولهم ، لا يفرق بين مخلوق وآخر ، يتمنى لو يعم الصفاء والاخاء والسلام شعوب الارض جميعها . يقف الى جانب الفقير والمظلوم ، وينصر الضعيف والمسحوق ، يسعده ان يكون مخدة لرأس متعب ، ولقمة في فم كل جائع ، ولعبة يلهو بها كل طفل محروم ..

لقد ضمن قصيدته « الى ابنتي » وهي آخر قصائد ديوانه « لحن الماضي » هذه الامنيات العذاب ، فكأنها كانت وصيته الاخيرة قبل موته ، ورسالته الى الانسانية فلنسمعه يقول فيها :

احب ان اذوب في محبة البشر
احب ان أرافق الغريب في السفر
ان امسح الدموع من محاجر اليتيم
واجعل الحياة في رحابه نعيم .
واخرج السجين من غياهب السجون

من أغاني المساء

جن المساء فكل نجم شارق … امسى يشع وللدجنة ماحي
لم انس ليلا قد كلفت بسحره … والبدر اشرق بالسنى اللماح
والروضة الفناء ازهر دوحها … ستظل منبت نرجس واقاح
والطائر الصداح في وكناته … يشدو بلحن كواعب وملاح
والنهر سلسال بريا مائه … يجري بكل عشية وصباح
الحب شاع بشاشة وطلاقة … جذلان يعبق بالشذى الفواح
ولكم هبطنا في المراعي والربى … لنشم عطر الفل والقداح
ولرب فاتنة تجلى نورها … وضح الصباح بوجهها الوضاح
هيفاء نافرة .... اخالها … كالزهر فاح بنشره الفياح
كلف الفؤاد بها كصب هائم … بين الحقول القيح والادواح
قد اصبح القلب المتيم هيكلا … للحب للاشواق للافراح
كفي الملام فلست اشكو مثلما … يشكو الجوى قلب الغريم اللاحي
اصليت قلبي بالنوى وباضلعي … نار تشب بغدوتي ورواحي
هذا ربيعك رائع متهلل … يحلو لعين المستهام الصاحي
والقلب مجروح يبيت مسهدا … وتظل تنزف بالدماء جراحي

كربلاء — العراق … سلمان هادي آل طعمة

وانشر السرور في القلوب والعيون
احب ان اكون
دعامة المظلوم والفقير
وناصر الضعيف في كفاحه المرير
احب ان اصير
حشية لراس متعب اسير
او لقمة
لشدق جائع كسير
او جرعة
لحلق ظامىء مسعور
او دمية
في حضن طفلة يتيمة
تهزني ذراعها
في نشوة عظيمة ..

وبعد فاذا كان الشاعر الياس ندور لم يكثر من النظم ، وكانت حصيلته ديوان « لحن الماضي » فقط ، فعذره ان مهنة التعليم الشاقة قد امتصت خصوبته ، وجففت اعماقه ، وقضى على منابع الالهام في نفسه، بما تقتضيه من تكرار واجترار ، وحياة مع الصغار ، وانحدار الى مستواهم العقلي وتبسيط المعلومات لهم ، فكيف يستطيع والحال هذه ان يطير على اجنحة الابداع ، ويحلق في سماوات العبقرية ، وحسبه انه ادى رسالته كشاعر ومعلم على اكمل وجه ، وخرج عدة اجيال لهذا الوطن تؤمن بالعروبة والقومية ، فمات قرير العين، راضي النفس مطمئنا .

---

(١) الكلمة التي القيت باسم اتحاد الكتاب العرب في حفل تابين الشاعر الياس ندور عضو الاتحاد .

دمشق — قصور — كزبري ٤٨ … عيسى فتوح

ترددت قليلا عند الباب.. ونظرت في ساعتي فوجدت انه ما يزال امامي بعض الوقت حتى ميعاد المكتب ، وكانت دقات الجرس ما تزال تدق، وكأنها تدعوني للدخول .. فلبيت

الواقع ان مكتبي بحاجة الى بعض الكراسي وسجادتين.. وربما وجدت ضالتي في هذا المزاد بسعر اقل من المحلات ..

يا..ه ، ما كل هذا .. موبيليات كثيرة .. كثيرة بدون نظام ، وتحف عديدة معلقة بدون ترتيب تابلوهات على كل حائط، ونجف في كل مكان وسجاد يغطي كل شبر من الارض ، ليت المزاد يبدأ بالسجاد اولا .. اذ انني لن استطيع البقاء هنا اكثر من ساعة .. ربما لا يباع فيها ربع اثاث غرفة واحدة اذا استمر المزاد بهذا البطء .. دقائق كثيرة تمر قبل ان يدق الدلال بمطرقته فتنتقل ملكية شيء من شخص الى اخر ، وتضيع فرص ويبتهج مزايد .. ويندم اخر وصوت الدلال ومطرقته لا يكفان .. بيانو الماني .. طاقم فضية ، فازة كريستال ، آه هذه السكرتيرة الحريمي الانيقة .. ما اجملها لولا انه لا حاجة بي اليها .. ماذا افعل بها وانا اعيش وحيدا .. ترى ماذا تحتفظ السيدات في مثل هذه القطع الصغيرة ، صاحبة هذه السكرتيرة بالذات .. ماذا كانت تحتفظ فيها.. خطابات غرامية ؟! ان شكلها الجميل الدقيق لا يوحي لي بغير ذلك ، ولكن كيف هانت على صاحبتها ولها ما لها من ذكريات ، بل كل قطعة من هذا الاثاث الفاخر لا بد لها في نفس اصحابها ذكريات .. فكيف يتخلون عنه هكذا ؟!

ولكن هل كان الانسان وفيا لاخيه الانسان حتى انتظر منه الوفاء للجماد ؟!

على انني لا يحق لي ان اتكلم بهذه المرارة .. انها لم تعاهدني قط على الحب ولم تعدني ابدا بالوفاء .. من اول الامر صارحتني بانها تحب شخصا اخر.. وانهما متفاهمان على الزواج.

اوه .. هذه سجادة ، ولكن لا .. انها كبيرة جدا .. لا اظن انني في حاجة الى واحدة في هذا الحجم ، ان مكتبي صغير وحجرة الزوار اصغر..

آه هذه السجادة .. انها صغيرة مناسبة تماما .. وبدا اول المزايدين مائتين وخمسين جنيه .. وخمسة وخمسين ، وسبعين .. يا للهول انها عجمي .. لا لا داعي .. من غير المعقول ان افرش سجادة عجمي من اجل ان يدوس عليها الشيخ عبوض ابو عوضين عندما يشرف مكتبي كي ارفع له قضية على المدعو حمزة عبد المقصود لانه سرق من ارضه كوزين ذرة عامدا متعمدا ...

وطارت السجادة الثانية من يدي ايضا .. معلهش خيرها في غيرها ..

ما أحلى الرجوع إليه

بقلم السيدة احسان كمال

*

واوقف الدلال المزاد لفترة راحة ، وقمت انا اتجول بين المعروضات .. لا شك ان اصحاب هذه الاثاثات اغنياء فانها كلها ثمينة للغاية ..ترى هل كانوا سعداء بكل تلك الرياش والتحف ؟ والان ماذا حدث ..بودي ان اعرف شعورهم وشعور ربة البيت على الخصوص وهم يبيعون اثاثها

قصة

ـ اثاث عرس لم يمض عليه كثيرا كما يبدو عليه ـ في المزاد العلني ، اكاد اوقن بان ربة هذا البيت تفرط في اثاثها وهي مغلوبة على امرها .. وان الفلطة وسوء التدبير مرجعهما الى زوجها ، فان السيدة .. اي سيدة تعتز باثاثها جدا ولا تتخلى عنه الا للضرورة القصوى لدرجة انهم يشبهونهن بالقطط من حيث كونهن عشاقا المكان .

مسكينة المراة .. الرجل يخطيء وهي تدفع الثمن .. على انه ربما لم يكن في الامر خطأ او ثمن .. ربما يبيع هؤلاء السكان اثاثهم ليشتروا خيرا منه .. او ربما كانوا مسافرين وصاحبة الاثاث بهذا السعر جد سعيدة .. الا ليتهم يكونون كذلك حقا ..

وحاولت ان ابدد الملل الذي احس به واقطع الوقت حتى يعرض شيء اريده .. فنقلت انتباهي من قطع الاثاث الى وجوه الحاضرين محاولا ان استشف من وجوههم وملابسهم الاشياء التي يريدون شراءها من هذا المزاد ..

هذه الفتاة الصغيرة لا ريب انها عروس ومعها والداها ، وفجأة سمعتها تتحدث بصوت عال ..

انتم كنتم بتقولوا نشتري نجفة ولا تابلوه بس .. مش نجيب الجهاز كله قديم . آه ما اذكاني .. انني اصلح محللا نفسانيا مهولا .. ولكن لا داعي ، خلي الجماعة بتوع علم النفس يكلوا عيش .. واغراني ذلك النجاح على تكرار المحاولة .. هذا الرجل الذي يلبس في يديه خاتمين غريبي الشكل وفي ربطة عنقه دبوس على هيئة جعران وعصا من الابنوس لا ريب انه من هواة التحف القديمة، وهذا المعلم الفخم الجسم والشوارب لا ريب انه غني حرب راى احد جيرانه الكويسين يقتني ثلاجة كهربائية فاراد هو الاخر ان يحصل على مثلها، وهذه السيدة الانيقة التي تحاول ان ترى وجهها في كل مرآة او لوح زجاجي تمر

به لتصلح خصلات شعرها .. انها لن تشتري شيئا قط .

وهذا الافندي الذي يمسك في يده مسبحة ويمضي يتمتم في سره .. يخيل الي انه لا يوجد سوى سجادة صلاة .. وهذه السيدة السمينة .. اراهن ان شيئا لن يلفت نظرها سوى الطقم الصيني والسرفيس ، وهذا الرجل الاصلع ذو النظارات السميكة والذي يجلس بعيدا سارحا في دنيا اخرى لا يعرفها سواه .. لا اظن انه سيزايد على اي شيء خارج حجرة المكتبة اما هذا الذي يدندن وهو يهز راسه منسجما فلا بد انه اتى وراء البيانو ..

اما هذه السيدة التي يكاد يغلبها النعاس فربما اشترت حجرة النوم!! وهذه الفتاة .. اوه نفس الفتاة الاولى العروس ، وكانت ما تزال ثائرة :

ـ انا عارفة ان العفش جديد ولوكس وبتاع عروسة ، ولكن وجه شؤم .. شوفوا صاحبته جرى لها ايه ؟

يا ترى صحيح جرى لها ايه ؟ تركت وجوه المشترين وعدت افكر في سيدة هذا المنزل .. لست ادري لماذا ، فلتكن حزينة متألمة لضياع عفشها ولكن ما شاني انا ؟ ، لقد اتعبت راسي من التفكير .. وكذلك تعبت قدماي من اللف .. سابحث عن مقعد استريح عليه حتى يستانف المزاد .

وفي غرفة الصالون وجدت المقعد .. هناك على المنضدة كانت مطفأة صغيرة بها اعقاب سجاير تحكي قصة الزائر الاخير .. او ربما كانت الجلسة الاخيرة لرب المنزل .

يحسن بي ان اقوم .. انني لن اجد اشياء متوسطة تصلح لكتب ، وانا بالطبع لا .. يا الهي .. من هذه السيدة ؟ هل تكون هي ؟. نعم انها هي .. هي بكل تاكيد .. ماذا اتى بها يا ترى وماذا تريد من هنا ؟ ولكن .. انني لم ارها بين المتزايدين في الصالة ولا بين المعاينين في اي غرفة اخرى .. يبدو انها ... هل هذا معقول ؟ ولكن ماذا يعني جلوسها حزينة ساهمة في فستان بسيط اقرب الى الملابس المنزلية وليس معها حقيبة يد سوى انها هي فعلا ربة هذا المنزل ؟

هذا غريب جدا .. هل هناك فعلا ما يسمونه بالحاسة السادسة ولهذا كنت مهتما بامر ربة البيت كل هذا الاهتمام ؟

واذا ففؤاد كان كما سمعت عنه فعلا والا فما الذي اوصل اثاث منزلهما الى يد الدلال ؟.. مسكينة عايدة .. قلبي معك يا عايدة .. هل يحق لي يا ترى ان اذهب اليها واحدثها ، ولكن ربما ظنت انني اشمت بها ، او ربما لم تكن تريد ان تراني اطلاقا .. انني لم انس اخر مقابلة لي معها .. كانت مقابلة عاطفية للغاية .. غضبت مني اشد الغضب حين حذرتها من فؤاد واخبرتها انه مدمن مراهنة وان القمار في دمه ، وانه في الغالب لا يريد الزواج منها الا طمعا في مالها .

ولكن هل تظل غاضبة مني حتى اليوم .. وبعد ان تاكدت من انني لم اكن اكذب عليها عدت اراجع نفسي ، من اين لي ان اعرف ان الامور كانت كما صورتها . آه .. بودي ان اعرف حقيقة ما حدث ولكن هل يليق ان اسالها ؟.. في هذه اللحظة دخل احد الخدم ليخبر سيدته انها مطلوبة للتليفون وانتظرت حتى قامت ثم اسرعت خلف الخادم .. واستطعت ان اكسب ثقته بعلبة من السجاير .. فعلمت منه ان تصوري كان في محله ، وزاد عليه ان سيده قد اختفى تماما قبل توقيع الحجز على المنقولات .

يا للنذل .. ايتركها وحيدة ؟.. اين ذهب .. آه لو استطعت العثور عليه . ولكني لا اريد قط ان اعثر عليه .. فمن مصلحتي ان تظل عايدة وحيدة .. وفي هذه اللحظة دارت معركة بين قلبي وضميري الذي احتج بانني شرير كبير لانني اريد ان تبقى عايدة وحيدة ، ودافع قلبي عن نفسه :

ـ ولكن ما ذنبي انا .. هذا حدث وحده دون ان اتمنى حتى حدوثه .. وعلى فرض انني تمنيت ذلك فهل انا القدر حتى تنفذ كل رغباتي ؟

ـ مجرد سرورك لاحزان عايدة جرم ..

ـ وماذا تساوي بضع قطع من الاثاث ؟

ـ انت تعلم تماما انني لا اتحدث عن الاثاث .. فهي حزينة لفراق فؤاد .. فؤاد الذي تعلم جيدا كم تحبه .

ـ هل تظن انها ما زالت تحبه حتى الان ، وبعد كل الذي حدث .. الا تعلم ان الحب الكبير قد ينقلب الى حقد كبير بسبب تصرفات كهذه ؟

ـ ربما

ـ بل انني واثق .

ـ ولكن ..

ـ صه ..

عادت عايدة فصاح قلبي في ضميري ان اسكت ولا ترد ، ولست ادري هل صمت فعلا ام عاد يتحدث ولكني انا الذي لم ارد سماعه .. اعرت كل اسماعي وعنايتي واهتمامي لدقات قلبي وهي تهتف من جديد بالاسم الحبيب . هي ايضا قد عرفتني .. انها تبدو كما لو كانت تريد ان تحدثني ولكنها تعود وتعدل .. في كل مرة تنظر الي ارى في عينيها كلاما تريد قوله لي .

ترى هل اكتشفت الان انها كانت مخطئة اذ رفضتني واستمعت لنداء قلبها الذي غرر بها .. هل تريد ان تقول ليتني سمعت كلامك ؟ وهل تقبلني الان اذا كررت طلبي ليدها ؟ شجعتني نظراتها على ان اذهب اليها ، فلو كانت تضيق بمحادثتي كما اخشى لما عادت الى الصالون والمنزل كبير كما رايت :

ـ مساء الخير يا عايدة .. هانم

ـ مساء الخير يا سعد ولا عايزني انا كمان اقولك يا استاذ سعد .

ـ انا آسف يا عايدة .. اصلها كانت مفاجاة لي اني اقابلك بعد الغيبة الطويلة دي .

ـ الدنيا كلها مفاجآت .. لكن انت المسؤول عن الغيبة الطويلة دي .. كان ممكن نبقى اصدقاء وانا فعلا كنت محتاجة لك جنبي يا سعد .. لانك مخلص وانسان !.

وخشيت ان يسارع قلبي فيتفاءل ويبني القصور في الهواء .. فنظرت الى عينيها احاول ان اقرا فيهما ما تعني .. ولكن لم يكن فيهما تعبير ما .. كانتا ساهمتين كانهما كانت تنظر بهما الى لا شيء .. طال حديثنا وهي تتحاشى ان تلتقي عيناها بعيني .. وتهرب بنظراتها الشاردة الى لوحة صغيرة معلقة فوق راسي .. لست ادري لماذا .. انا كنا زملاء بالجامعة .. فمن غير المعقول ان يكون ذلك حياء مني ، كما انها لم ترتكب في حقي ذنبا يجعلها تخجل من مواجهتي فلكل انسان الحق في ان يحب من يشاء ، ولكن ربما كانت هي تظن في نفسها انها اساءت الي ... مع انها لم تفعل وحتى اذا كانت فعلت فقد نسيت انا كل شيء .

كم تمنيت ان اقول لها ذلك حتى تترك خجلها وتنظر الي . ولكني لم اكن متاكدا من سبب شرود نظراتها ، في اول الامر ظننت انها تنظر معجبة الى لوحة رائعة .. فالتفت براسي بحركة لا شعورية وسارعت هي تقول :

ـ دي لوحة ..

ولم اكن قدرايتها جيدا فقلت لها :

ـ دي لازم لوحة ثمينة .

ـ ثمينة ؟! ابدا ، اللوحة الكبيرة اللي قدامك دي هي اللي ثمينة صحيح ـ وكنت قد رايتها طبعا .. كانت لوحة رائعة حية لرسام مشهور ـ اما دي فلوحة تافهة .

ـ اصلك كنت باصة لها على طول

قالت بدهشة :

ـ انا ؟.. ولا كنت شايفاها خالص .

وكنت قد تمكنت من رؤيتها .. فوجدتها فعلا محاولة رديئة لرسام مبتدىء .. وقلت لها :

ـ دي يظهر اللي رسمها واحد هاوي .

ـ فعلا .. وهي مكنتش تصلح ابدا للصالون لولا انه هو اللي كان راسمها .. فؤاد .

وعدت انظر الى اللوحة بدهشة .. كانت تمثل كوخا صغيرا يقبع كالعش وسط حديقة واسعة غناء وتحت خميلة ظليلة بها تجلس امراة تبتسم في سعادة وخلفها رجل يحيطها بذراعيه في حنان ، وعلى مقربة منهما يلعب طفلان في براءة الملائكة .

وقالت في تهكم ساخر :

ـ دي كانت اول هدية قدمها لي .. وقاللي ان دي احلامه مرسومة على الورق ..

ثم اردفت بمرارة :

ـ حتى ريشته كانت خداعة زي العاطفه ..

واردت ان امتحن عواطفها فقلت وكانني اواسيها :

ـ مين عارف .. يمكن يندم على الطريق اللي كان ماشي فيه ده ويبعد عنه .. وترجعوا لبعض تاني

وانتفضت عايدة كأن حية لدغتها وقالت وهي تنظر الي بحدة واستنكار وعتاب بالغ :

ـ انا .. ارجع له تاني ؟!.. انا .. انت بتقول ايه يا سعد .. انت اتجننت .. ده انا دلوقت اتصور العمى ولا اتصوروش .

وسكتت قليلا وهي تلهث وتلتقط انفاسها ثم استانفت تقول :

ـ انا دلوقت كرهته .. كرهته .. ولا يمكن ارجع له تاني ولو شنقوني .

وسكتت مرة اخرى وهي تضغط شفتها السفلى باسنانها كانها تحاول ان تمنع الدموع التي كانت تلمع في عينيها من السقوط .. واحترمت آلامها فلم اتكلم ، وساد الصمت بيننا برهة حتى قطعته هي فجاة وكانها تحاول تغيير الحديث :

ـ انت مكنتش عارفني ولا ايه ؟

ـ ازاي بقى ؟!

ـ ولا يمكن كنت لسه زعلان مني وعشان كده مكنتش عايز تكلمني .

ـ انا ازعل منك يا عايدة ؟.. انا ؟.. انتي مش عارفة انا كنت با.. باعزك قد ايه ؟

ـ دا كان زمان .

ـ وايه الصلة بين الزمان وبين العواطف ؟

ـ تفتكر كده ؟ ، ده انت اثرت موضوع كنت بافكر فيه من شوية وما قدرتش اوصل لراي تفتكر يا سعد ان الحب ما بيموتش .

وخفق قلبي بعنف وكانه يريد ان يقفز من صدري ليرتمي تحت قدميها حتى تتاكد ان حبي لم يمت ؟

ـ الحب مش ممكن يموت يا عايدة .. اذا كان حب حقيقي صادق .

ـ طبعا انا باتكلم عن الحب الحقيقي الصادق .. فيه ناس بيقول ! ان الزمن والفراق يقدروا يمحوا الحب من اي قلب مهما كانت قوة الحب ده .

وقلت بحماسة شديدة :

ـ ابدا .. ابدا .. لا فرق الايام والسنين ولا فرق البعد والاميال يقدروا ينسوا المحب المخلص في حبه .

ـ مش متصورة .. انت نسيت انهم بيشبهوا الزمن بالغبار اللي بيغطي الاحزان والافراح والامال .. وكل شيء .. لحد ما يدفنها .

ـ كل شيء جايز .. الا الحب .. واذا كانوا بيشبهوا الزمن بالغبار فهم كمان يشبهوا الحب القوي بجمرات النار .. وجايز الغبار يغطيها لكن عمره ما يطفيها .. واول حاجة تنفخ الرماد ده زي مقابلة الحبيبين بعد غياب طويل مثلا .. يرجع النار توهج اكثر من الاول .

وتنهدت عايدة تنهيدة حارة وهي تقول :

ـ لكن ساعات بيبقى فيه ظروف تانية مش بس تخلي الواحد ينسى

اللي بيحبه .. لكن تخليه كمان يكرهه .. اذا كان حبيبه ده ظلمه واساء اليه .

ـ مش معقول ابدا .. ده ما؛ يبقاش بيحب ، الا اذا كان بيحب نفسه ، اللي بيحب عمره ما يفتكر اساءة حبيبه .. والعكس دايما بيحاول يلتمس له الاعذار .. وربما اقنع نفسه في بعض الاحيان ان هو اللي غلط في حقه !!

ـ تفتكر كده يا سعد ؟

ـ مش بافتكر .. ده انا متاكد .

ورفعت الي وجهها وقد شاعت فيه لاول مرة ابتسامة الارتياح وهمست لي :

ـ ما تتصورش قد ايه ريحتني واسعدتني واحييت الامل في قلبي .. يا سعد .

يا الله .. لقد كدت اقوم من مكاني لاقبل يدنها واهتف بها .. وانتي اللي احييتي قلبي من تاني .. هل كانت تظن ان حبي لها قد انتهى .. انها اذا لم تكن تعرف قدر هذا الحب بالضبط .. ولكني اقنعتها بصدق عاطفتي وحماس مرافعتي .. انني محام ناجح .. لقد كسبت القضية .. اهم قضية في حياتي .. قضية قلبي وحب عمري .

في تلك اللحظة سمعنا اصوات الدلال والمزايدين تقترب فعادت تبتسم لي وهي تهز رأسها باستخفاف وتهمس كانما لنفسها :

ـ ياخدوا كل حاجة .. ما عدش يهمني ..

بدأ الدلال بالنجفة ثم بالسجادة .. ورست كلتاهما على مزايد ثري ولا شك .. فقد عرض فيهما ثمنا باهظا ، ثم بدأ الحاضرون يزايدون على طاقم الصالون نفسه وتخطى الرقم الخمسمائة جنيه عندها لاحظت

التغيير الكبير الذي طرأ فجأة على عايدة .. زاغت عيناها وتقلصت يدها على ظهر احد الكراسي واصفر وجهها ونضح بقطرات من العرق ، وارتعشت شفتاها وخيل الي انها ستسقط مغشيا عليها .. ، اسرعت اليها لاسندها فبادرتني بلهفة :

ـ انا عايزة منك معروف يا سعد .. يا ترى تقدمه لي ؟

ـ طبعا يا عايدة ... ولو طلبتي روحي .

ـ متشكرة يا سعد .. انا عارفة انك صديق مخلص .. كريم .. اسمع . فيه حاجة هنا في الفيلا تهمني جدا .. اكثر من العفش ده كله .. حاجة غالية علي جدا .. اغلى من عيني ! حاجة مهمة لي اني حافقد روحي لو فقدتها ، وزي ما قلت لك عائلتي كلها خارج القطر الايام دي . وما كانش فيه وقت استنجد بواحدة صاحبتي .. وكمان ما هانتش علي كرامتي .. وانت الوحيد اللي تقدر تنقذ لي الحاجة دي من ايدي المزايدين .. وفي اقرب فرصة حاسدد لك الدين ده .. الدين المادي طبعا .. لكن حا افضل طول عمري مديونة لك بجميل ما اقدرش اوصفه لك .

ـ بس كده يا عايدة ؟ .. كنت عايز اقدم لك خدمة اكبر من كده .

ـ دي اكبر خدمة ممكن ان حد يقدمها لي .

وفي تلك اللحظة خرق اذني صوت مزايد يعرض في طاقم الصالون سبعمائة وخمسين جنيها ولم يقف المزاد عنده بل استمر الرقم في الارتفاع ، وقلت لعايدة وقلبي واجف

ـ لكن دنا ما معاييش ربع المبلغ ده دلوقتي .. هم اظن ما بيقبلوش شيكات لكن انا حا اعمل اخر جهدي

ولكنها قاطعتني وهي تضحك :

ـ لا ما تخافش .. الحاجة اللي با اقولك عليها حايكون تمنها رخيص جدا .

ـ طيب ايه هي عشان ادخل المزاد اول ما تتعرض .

ـ اللوحة دي ..!!

وزاغت عيناي بين اللوحتين متجاهلا اشارة راسها وانا اسالها ببلاهة :

ـ اي لوحة ؟..

تمنيت ساعتها لو ان سمعي وبصري اصابهما خلل مفاجيء فنقلا الى طلبها مغلوطا ولكنها كررت اشارة راسها باصرار هاديء :

ـ اللوحة دي ..!! ، اللي رسمها فؤاد لاحلامه .. واحلامي ..

اكتشفت ساعتها انني في مرافعتي البليغة لصالح الحب كنت اقصد حبي لها وكانت هي طيلة حوارها تقصد حبها لفؤاد .

حين كنت اغادر الفيلا مررت بالصالة ، وكان احد الحاضرين يعبث بمفاتيح الراديو محاولا ان يديره ليختبره قبل ان يزايد عليه .. وفجاة انطلق صوت نجاة الصغيرة الجميل .. او الذي كان جميلا في نظري حتى نصف ساعة مضت .. ولكنه في هذه اللحظة بدا لي وكانه المطارق تدق راسي وهي تكرر : ما احلى الرجوع اليه .. ما احلى الرجوع اليه .. اليه .. ما احلى الرجوع اليه .

القاهرة — احسان كمال

عندما يصبح الريف بطلاً لمجموعة قصصية

بقلم ابراهيم سعفان

* * *

اذا نظرنا في الساحة الادبية نجدها زاخرة باسماء قصاصين من الادباء الشبان الذين يغذون الحياة الادبية بانتاجهم فيجددون شبابها ويثيرون فيها النشاط والحيوية وهؤلاء الشبان اثبتوا قدراتهم الفنية التي تبشر بمستقبل زاهر للقصة .

ومن هؤلاء الشبان القاص عبد العزيز الشناوي وهو يكتب القصة القصيرة بقدم ثابتة تدل على تمكنه من فن القصة .. بعيدا عن التأثر بالاخرين .. فانتاجه يحمل سماته الفنية وتفرده والشناوي قاص له فكر يوظف فيه لتوصيله دون ان يطغي هذا الفكر على الناحية الفنية ولكنه يفهم جيدا تلك المعادلة التي يقع فيها بعض ادبائنا عندما يتعرضون لقضية فكرية ولقد استطاع ان يحفظ التوازن في قصصه بين الفكر والفن فاستنقذ قصصه من الهتافية والمباشرة التي تضعف العمل فنيا ، واستنقذها ايضا من الجفاف الفكري الذي يصيب بعض الاعمال التي تتعرض لمعالجة القضايا الفكرية .

واذا نظرنا في انتاجه القصصي نجد انه تناول العديد من الجوانب :

١ ـ الجانب الفكري .

٢ ـ الجانب الاجتماعي .

٣ ـ الجانب الانساني .

وهو في ذلك كله لا يوقف شخصياته موقف المتفرج على الاحداث . فهي لا تعيش خارج الاحداث بل تعيش داخلها بقلبها وعقلها .

وشخصياته تصور الانسان بقوته وضعفه ولذلك فقد تزل وتسقط ولكن لانها لم تفقد بعد القوام الانساني الذي يشكل وجدانها وهو الدين فانها ما تلبث ان تعود الى وعيها وتتخلص من ضعفها . ولذلك فهي شخصيات تنبعث تصرفتها من داخلها نتيجة تكوينها الثقافي ونتيجة لعاداتها وتقاليدها الموروثة ، ونتيجة للوجدان الديني الكامن في اعماق كل انسان يصحو في اوقات الازمة فينقذ الانسان ويصحح له مساره الحياتي .

ومما يميز اعمال الشناوي اختياره قصصه فهو يستمدها من البيئة التي يعيش فيها .. فهو يقيم في المنصورة ويخالط قراها ، ولذا نجد معظم احداث قصصه تدور في القرى وتتناول عاداتها وتقاليدها . وهو لا يهتم فقط بتقديم القرية من حيث هي منازل ، ولكنه يهتم بتقديم انسانها بعقله وقلبه .

واهم ما يلفت النظر انه دائما يرجع الى الفطرة او العادات والتقاليد ليجد فيها الخلاص ، وهو لا يقع في نطاق محلية الاحداث ولكنه ينطلق بها الى العالم الذي يهم الانسان عامة ويتمثل هذا في جميع القضايا التي عالجها سواء اكانت فكرية او اجتماعية او انسانية وهنا نتكشف أدراك الشناوي التام بوظيفة القصة ومن تخاطبهم

فاذا نظرنا الى القصص التي تعالج القضايا الفكرية نجد انه اتخذ موقفا ايجابيا فبين راي الانسان في القرية فيها وكيفية رفضه للأفكار الملحدة المخربة لروح الإنسان، واختياره لانسان القرية بالذات اختيار للانسان عامة لانه يمثل الجانب الفطري في الانسان الذي يرفض الاشياء وفقا لعادات وتقاليد ومكونات دينية واجتماعية لعبت دورا كبيرا في تشكيله فهو يقول من خلال شخصياته ان الانسان على ارضنا انسان له دين يقف حصنا منيعا لحمايته من السقوط فهو الملجأ الوحيد الذي يلجا اليه الانسان عندما يغفو من سبات الانحلال الخلقي او الفكري

ففي قصة « الزير » يطارد اهل القرية بطلها لانه شرب من الزير الاحمر ويحاول ان يبين لهم انه شرب دون قصد .. دون ان يعرف صاحبه .. ولكن تحاصره العيون باللوم .. الشيخ زيدان يطرده من العمل .. حاول ان يثبت حسن نيته ولكن دون جدوى قالوا له اتريد ان تكون مثل سعداوي الذي لبس الكوفية والجلباب والحذاء وخسر نفسه واهله هرب من زوجة ابيه التي تنتظره بالعصا .. ظل يجري ويجري .. دوى اذان الظهر ملأ سماء القرية .. وجد نفسه في الوسعاية امام المسجد .. اسرع نحو الباب المفتوح .

فالقصة رمزية تتناول الشيوعية . وتبين انه لا مكان

فالقصة رمزية تتناول الشياعية . وتبين انه لا مكان

لها في مصر لاننا شعب متدين يرفض الالحاد ، ولهذا فبطل القصة في النهاية يرفض ان يستسلم للافكار الملحدة وهذا اعتقاد راسخ واصيل من والده . الذي اخذ على نفسه ان يسحق كل ثعبان او بيض ثعبان حتى لا يخرج منه ثعابين اخرى اذا عثر على بيضة ثعبان يسحقها بحجر .. اذا تركها سيخرج منها ثعابين .. تزحف .. تملأ الحقول .. تتسلل الى القرية . تبث سمومها في الطعام وتلدغ الاطفال .

وفي قصة « الضفادع » يناقش ايضا قضية الافكار الملحدة . فالضفادع تملأ الفضاء بنقيقها الصاخب المقلق الذي يغطي على صوت امام الجامع وهو يلقي خطبة الجمعة .. ولكن هذا النقيق ما هو الا اصوات جوفاء سرعان ما قضي عليها .. وعلا صوت نقيبه المسجد فوق هذه الضوضاء الكاذبة .

ان الشناوي في هاتين القصتين قد تناول قضية فكرية تهم كل انسان وتنقل جزءا من تفكيره . وبذلك استطاع ان يخرج من نطاق بيئته الى نطاق ارحب واوسع مما يعطيها صفة الاستمرارية لخروجها من دائرة المناسبات الضيقة .. لقد اثبت انه لا مكان للافكار الملحدة على هذه الارض الخضراء المروية بماء الدين واذا انتقلنا الى الجانب الانساني في قصصه نجده يتناول هذا الجانب على ثلاثة مستويات .

. الاول : علاقة الفرد باسرته . الثاني علاقته بالقرية. الثالث : علاقته بنفسه .

فعبد القوي في الطيور المهاجرة عامل الترحيلةالذي يهد جسمه المرض ولكنه مضطر الى العمل ليوفر لقمة العيش لاولاده .. رغم هذه الظروف القاسية ورغم قسوة الخولي عليه ، وطرده من العمل . وفشله في الحصول على النقود ليحقق مطالب اولاده .. رغم هذه الظروف القاسية .. يرفض ان ياكل لقمة العيش من حرام ، فيعيد ساعة الخولي التي سرقها في لحظة ضعف .. ويصحو ضميره .. يستيقظ في نفسه كل ما تعلمه من والده ومن امه من قيم خلقية ترفض ان ياكل لقمة العيش من حرام .

وهذا التصرف الايجابي نتيجة - كما قلنا .. لقيمه الدينية التي تعيش في وجدانه والقيم الخلقية التي تعلمها .. وهذا ما عدل سلوكه .. وحوله من انسان لص الى انسان نظيف . لقد تذكر كلمة محمود افندي ابن العمدة .

ـ تظل تعمل طوال النهار تحت الشمس وتاخذ عشرة قروش ؟ اجر تافه .

ـ لكنه يرضيني .. المهم ان تكون لقمة العيش حلال .

لقد استخدم الكاتب المؤثرات الخارجية لتوقظ ضميره .. وتنقذه من الهوة السحيقة التي سقط فيها .. فلم يكتف الكاتب بمحاصرته بكلمات عبد القوي ، ولكن يحاصره بمؤثر اخر وهو العامل الديني .. ينفجر في نفسه الصراع بين الحلال والحرام : ترامى الى سمعه صوت المؤذن يؤذن لصلاة العصر .. اقتحمت بصره مئذنة الجامع بضخامتها تفجر في صدره ينبوع الرهبة .. كيف فعلت ذلك على اخر الزمن ؟ صحيح انني مريض وصاحب طورة اولاد .. لكن الحياة تسير .. طول عمري رجل شريف .. كيف تمتد يدي على حاجة غيري ؟

نجح الكاتب في تفجير الصراع داخل عبد القوي بهذين المؤثرين .. الصراع بين الخير والشر .. بين قيمه الدينية والاخلاقية التي تربى عليها والشر الذي ياكل كل شيء في لحظة ضعف .. صراع بين السقوط والصعود الى قمة الشرف والمحافظة على سمعته وسمعة اولاده .

والعامل الديني يلعب دورا كبيرا في اعمال عبد العزيز الشناوي .. فشخصياته وان كانت تتعرض للسقوط سواء بقصد او بغير قصد .. فالله سبحانه وتعالى يقول « وهديناه النجدين » والله سبحانه يفجر في الانسان عنصر الارادة فيصل بنفسه الى الطريق المستقيم دون مساعد .

والشناوي متدين استطاع ان يستغل هذا التصوير القرآني للانسان استغلالا فنيا في ابراز صراع الانسان عندما يقع بين اختيارين ولان شخصياته كما قلت مؤمنة فانها سرعان ما تعود الى طبيعتها السوية .. عندما يتفتح قلبها ويهتدي الى طريق الدين طريق الخلاص .. فانها سرعان ما تجد الخلاص وراحة البال .. ويتمثل هذا في قصة « الطيور المهاجرة » التي عرضناها وقصة «الزيرة» و « الضفادع » ففي هذه القصص نجد شخصياتها تعود الى الطريق الصحيح والامان النفسي عندما تلجأ الى الجامع . واذا كان عبد القوي يمثل صورة صراع الانسان مع نفسه وبين الخير والشر فان بطل قصة « السمك يعيش على الارض » تمثل علاقة الانسان باسرته .. فهي تدور حول اخوين احدهما فقير والاخر غني .. وكل منهما يعيش بمفرده .. ونرى الاخ الغني يسيء معاملة اخيه رغم خدمته له .. فلا يساعده ماديا ليخفف عنه قسوة الحياة .. لقد نسي ايام كان في الجامعة .. كنت اسافر الى القاهرة احشر نفسي بين الكتل البشرية .. اجلس تحت الاقدام . احمل اليه سلة الخبز المرحرح والارز المعمر .. و .. وعندما يعود الى القرية اسرع الى المحطة .. احمل على كتفي حقيبته التي لا يستطيع حمار العمدة حملها .

ورغم هذه القسوة والجحود من جانب الاخ الغني الذي بلغ من القسوة ان يحاول حرمان اخيه من ايجار مكتب البريد ليفوز هو بالايجار .. رغم هذا كله فعندما يتعرض الاخ الغني للاعتداء من زهران واولاده نجد اخاه يسارع بالوقوف الى جانبه ليدافع عنه يفعل هذا دون تكلف ولكن بتصرف طبيعي يتفق وعادات القرية وتقاليدها الموروثة وهو ان الرابطة الاسرية قوية لا تنفصم ولا تذوب مع الايام .. والدم لا يكون ماء كما يقولون .

وفي قصة « غيطاني » يعالج علاقة انسان بمجتمعه .. بالقرية .. فغيطاني يرفض من العمدة خمسة جنيهات رشوة رغم حاجته الشديدة لها لانه يابى ان يشهد زورا ضد اهل القرية لصالح العمدة .. ظل في صراع مع نفسه

حتى وصل امام المامور ، وكان قد وصل الى قرار حاسم .. وهو الا يدلي بشهادته لصالح العمدة ضد اهل القرية ويلقي بالجنيهات الخمسة امام المامور .. لقد فكر غيطاني كثيرا في « سمعته » .. في اهل القرية الذين سيأكلون وجهه .. يشهد زورا ؟ سار هو والعمدة . وصلا الى المامور .. يطلب العمدة من غيطاني ان يقول الحق .. لا يطيق غيطاني ان يشهد زورا .. وقف امام المامور .. القى بالخمسة جنيهات .

وفي قصة « اغنية قبل الموت » يعالج الخوف الذي يسيطر على الانسان .. ويجعله يعيش في وهم .. ويظل اسير هذا الوهم حتى يشرف على الهلاك .. ولا يستنقذه منه احد الا المواجهة لامر الواقع ليعرف الحقيقة وحطم حاجز الخوف الذي يرعبه ويشله ويهدده بالضياع .. فيصور ان القرية تعيش في رعب من ضبع يهدد امنها ويقطع الطريق على العائدين من حقولهم .. استولى الخوف على اهل القرية .. ووقفت الحياة فيها اغلق الناس ابواب بيوتهم .. الاولاد لا يلعبون في الشارع .. كل امراة خافت على زوجها .. « صرنا نلتحف الخوف والظلام .. كيف يتسنى لقريتنا التي عاشت سعيدة كريمة آلاف السنين ان يعشش عليها هذا الكابوس » ؟

توقفت الحياة تماما ..

الظروف تحاصر بطل القصة .. ليس من المعقول ان تخلو القرية من الرجال .. ماذا يفعل اخذ يفكر .. لا بد من وسيلة للخلاص .. لتنعم بالحياة بدلا من الموت . خلت الدار من الماء . الدقيق . الجاز . الملح . و .. لقد زهقت من الجبس بين الجدران ماذا اقول لابنائي .. خلت الدار من الماء والخبز و .. لا استطيع ان انظر الى وجوههم اصبحت اخشاهم جميعا .. عيونهم الضعيفة تخترق صدري .. تقرا على ضلوعي احرف الخوف .. بم ارد عليهم ؟ عيونهم تطرح الف سؤال في كل نظرة قلقة .. في كل رمشة جفن تسال عن الكارثة .. تساؤلات تكبر في احداق اولادي .. تنتظر الاجابة .. الايام تمر جافة .. رهيبة . اذا انطلقت ضحكة تكون مكتومة .. ذبيحة .. تشنجات مريض بالصرع .

لقد نسج الكاتب حول البطل الاسباب التي تجعل الصراع يحتدم في نفسه ليصل الى نهايته فيدفعه الى عمل شيء للخلاص .. لقد وضع الكاتب البطل بين اختيارين .. اما ان يموت واولاده من الجوع .. واما ان يواجه الضبع مهما كانت النتيجة .. المهم انقاذ الاولاد .. وماذا فعل بعد التفكير الطويل .. لم يطق الانتظار . ضاق صدره . لا بد أن يحقق لاولاده ما يريدون .. امتدت يده الى العصا . سبقته العصا من وجه الباب . اطل الفجر بوجهه من وراء السحب .. برزت في ذهنه صورة الشيخ صابر بجلبابه الابيض وهو يحث القرية على النهوض للصلاة والذهاب الى حقولهم .. شدد قبضته على العصا . اخذ يدق الابواب .. والشبابيك . لمح رجلا في نهاية الشارع يدق الابواب بقبضته .. رفرف قلبه بين ضلوعه .. اصبحنا على موعد .. مللنا الانتظار والجلوس داخل الجدران .. قررنا مواجهة الضبع بدلا من ان تكون فئرانا في مصيدة . تحركت القرية ، خرجوا جميعا للبحث عن الضبع .. ووجدوه نائما بين اعواد الحلفا ويطلق شيخ الخفراء مقذوفا .. لم يتحرك الضبع .. ولم يسمعوا له صوتا .

ويفاجئنا الكاتب بالحقيقة المرة .. بان الضبع كان من البلاستيك .. لقد وضعنا وجها لوجه امام انفسنا .. مواجهة قاسية ساخرة .. ولكن لا بد منها لنحدد مواقفنا ولا نقع فريسة للوهم .. فلا علاج الا بنزع الخوف من صدورنا نتمكن من تخطي الوهم القاتل .

واذا كان الشناوي في القصص السابقة قد قدم نماذج مختلفة من القرية يتمثل فيها الطيبة والتضحية .. ونماذج اخرى ساقطة ومخادعة فانه يقدم في قصة البهلوان مثالا للانسان الساذج .. الريفي الذي يغرق في بحر المدينة الصاخب .. مثل عليوه الذي فقد اربعين جنيها من التسعين جنيها التي ادخرها ليشتري بها بقرة .. ولكن يقع في حبائل المحتالين .. ويعضه الندم ويحاول ان يسترجع نقوده دون فائدة .

ويمضي الكاتب في رسم الشخصية الساذجة بان تجد عليوه يسلم امره لشاب وعده بانه سيعيد اليه نقوده .. فيحدث نفسه بان سيدي محمد العدوي قد يكون ارسله لينقذه ويعيد المبلغ المسروق .. « كثيرا ما حدثتني امي عن سره الباتع .. لكن هل ستلحق بالبهلوان وستسترد نقودي ..؟ »

ان الكاتب بهذه الكلمات يسخر بسخرية مريرة من هذه السذاجة والطيبة التي تضر صاحبها .. لم يتعلم من المرة الاولى . فيسلم نفسه في المرة الثانية الى شاب مجهول لا يعرفه .. يوهمه بانه سيسترد له نقوده .

من هذه القصص يمكن القول بأن عبد العزيز الشناوي يوقف أبطاله كما قلنا في موقف الاختيار ويفسح بعد ذلك للصراع الذي تعانيه الشخصيات . ولكي نعدر ونشعر بمدى اهمية القرار الذي يتخذه . فانه يحرص على تقديم الجو العام للقصة والظروف المحيطة بكل شخصية وشخصياته محددة الملامح نفسيا واجتماعيا وفكريا وهي ليست مثبتة الصلة بواقعها وبيئتها ولكنها متصلة اتصالا وثيقا بواقعها وبيئتها وتعمل لها الفحساب في كل تصرفاتها .

وحرصا منه على تقديم الجو العام للقصة فانه يستخدم الالفاظ الريفية الدارجة التي لا تستخدم الا في الريف .. فنجد « الوسعاية . جر الجنابية . نبات العليق . شتلات الطماطم » في قصة الزير .. و «الطاجن الوط الارض . البشت . واكفى على الخبر ماجور » في

لاتحقد على زمني

« الى ولدي ع. س. »

اماط الرعب عن خلدي   رداء العيش في رغد
فهذا العمر ليس يبرى   سوى الاشلاء والنكد
دنى الاعماق نازفة   كجرح الارض بالحرد
اذود الياس عن نظري   فلا اسطيع يا ولدي !

★ ★ ★

نهلت الصاب من وطن   طوى كشحا على الكمد
فهبل تبقى العروبة في   دمي روحا من الجلد
ووحش الحرب بين ربا   ضها ، يقتات من جسدي

★ ★ ★

فتاي الفر ، انت غد   لمجد العرب في الابد
فلا تحقد على زمني   اذا ما ضج بالعقد
فنحن البحر منفلقا   بريح اللمز والحسد
وانت الشمل مؤتلقا   بنور الحب والمد !

★ ★ ★

اخس الصمت يشربني   خجولا .. دونما كبد
وانت الصوت تقراني   كسفر الخلد ، في البلد

مراكش ــ المدينة ــ المغرب
ص.ب ٤٦١

احمد بلحاج آيت وارهام

قصة البهلوان . والخبز المرحرح . الارز المعمر . الزريع .. في قصة السمك يعيش على الارض .

والشناوي حريص على توصيل افكاره الى المتلقي ولذلك ابتعدت عن الوقوع فيالاشكال الفنية الغامضة التي تفسد العمل الفني . وابتعد ايضا عن استخدام الالفاظ والتراكيب المعقدة والغامضة التي تقف حاجزا بين المتلقي وبين فهم القصة :

ان القصة القصيرة كالقصيدة .. ولذا لجا الشناوي الى التركيز والتكثيف وبعد عن الاستطراد . ولذا نجد اسلوبه كثيرا مايصل الى اللغة الشعرية بما يحويه من الفاظ رقيقة . ويرجع هذا الى وضوح الرؤية لانه اديب مؤمن بالكلمة ورسالتها ولذلك فهو لا يتسرع في كتابة قصصه ولكن يتانى في كتابتها ويظل يراجعها حتى يرضى عنها تماما .

ان الشناوي يضع يده دائما على نبض مجتمعه .. يعايش احداثه .. وهذا من شيمة الكتاب الحقيقيين المخلصين .

القاهرة   ابراهيم سعفان



البير اديب

من ذكريات ألبير أديب

اجرى الحوار
الياس خوري ومحمد فرحات

* * *

في اول كانون الثاني عام ١٩٤٢ ، صدر العدد الاول من مجلة « الاديب » .

ومنذ اربعين سنة و «الاديب» تصدر ، وهذا الرجل يرعاها كانها احد اولاده . البير اديب الشاعر والمجدد ورئيس التحرير والمبدع والفنان ، صفات متعددة تجتمع في رجل واحد ، فيتعدد الواحد الى ما لا نهاية ، ولا يكون نصيب الابداع الفردي الا مجموعة شعرية واحدة هي « لمن » ، الصادرة عام ١٩٥٢ عن دار المعارف في مصر ، كانه الابداع يتوزع وينتشر في الاخرين .

ومن هو البير اديب ؟

انه الاخرون . رجل قرر ان يكون حين يكون ، في الاخرين . شاعر ، كان اول من بدا مغامرة الشعر الحديث في اواخر العشرينات . مناضل يكمل مسيرة رعيل اللبنانيين الكبار الذين هاجروا الى الاميركتين ومصر . فاذا به يهاجر الى الاثنتين من المكسيك الى مصر ثم يعود الى لبنان . كانه يستكمل دائرة المهجريين ويحيلها الى فعل في الواقع ، او كانه آخر المهجريين واول المحدثين .

وهو الى جانب ذلك ، مناضل قديم . وفدي في مصر وقومي ثم اشتراكي في لبنان . ثائر وشاعر واذاعي وصحافي وكاتب قصة وصاحب احدى اكثر المجلات الادبية اهمية في تاريخ تطور الكتابة العربية الحديثة .

نجلس امامه في منزل ابنته ندى حداد ، في شارع يموت ، الحمراء ، فالمنزل الذي يعيش فيه البير اديب وتصدر المجلة منه ، يقع على الخطوط المشتعلة في طريق الشام بمواجهة بناية « البرّيمو » .

« ثمانية ايام انا وزوجتي في الممر ، والدخان يكاد يخنقنا ، ثمانية ايام والقذائف لا تتوقف . ثم تفزنا من الجهة الخلفية ، ونحن الان هنا ، اوراقي هناك آمل ان لا تنهب » .

وهو بشعره الابيض وجبينه العريض ولكنته المصرية ، امامنا ، يتكلم ، يفتح دفتر ذاكرته ويتكلم . كان هذا الذي نعتقده تاريخا ادبيا هوحياته: الياس ابو شبكة، عمر فاخوري ، احمد شوقي ، خليل مطران وعبد الوهاب البياتي .. والجميع . التاريخ الادبي امامنا ، وهو يتكلم عن عينيه ، عين لا ترى ، واخرى ترى كراس الدبوس ، لكنه يضع امامه اكوام مجلته « الاديب » ، ويكتب على اغلفتها العناوين من اجل ارسالها بالبريد .

هذه هي حياتي ، يقول ، اذا راحت اموت .

وامامنا يبسط حياته على كفيه المرتعشتين ، يدخن قليلا ، وعندما تاتي الذكريات يعود اليه عزم الشباب ، « لو نجمع عزم الشباب الى حكمة الكهولة » .

امامه ومعه كانا في التاريخ، هذين الكفين المبسوطين امامنا ، كانهما خارطة الثقافة العربية الحديثة .

نشكره ، على ماذا ؟

الشكر لا شيء ، نستمع اليه ، ومنه نتعلم .

● البير اديب .. لنعرفك .

ـ ولدت في « ميزال ديل اورو » ـ المكسيك ، في اول تموز من العام ١٩٠٨ . والدي سعيد اديب كان قد هاجر الى هناك بتشجيع من صهره اسكندر الخوري الذي سبقه الى هناك تاجرا كبيرا في المكسيك ، واصبح فيما بعد رئيس مجلس الادارة في جبل لبنان . ووالدي بدوره ترك منصب مدعي عام عموم المتن ليعمل عند صهره في المكسيك ثم يمتهن التجارة ، ويبقى هناك حتى وفاته . ولي الان ثلاثة اخوة في المكسيك .. كان ابي شاعرا ، تخرج في مدرسة الحكمة ، ونشر هنا في مجلة « الضياء » . كتب الشعر بالعربية والفرنسية والاسبانية واتقن الانكليزية .

جئت الى مصر بصحبة والدتي وكان عمري خمس سنوات ، فقد ارسلني ابي لاقيم عند جدي بطرس اديب رئيس بلدية دير القمر آنذاك (اصل عائلتنا هو آل نعمة ضو) والغاية من ارسالي اتقان العربية في مدارس الوطن.

صادف اني مرضت في الاسكندرية التي كانت محطة تبديل للبواخر ، وقد ارسل ابي خبرا يقول فيه لامي : ابقي في الاسكندرية فبقينا ، ويظهر ان ابي شعر بقدوم الحرب العالمية الاولى . دخلت الى مدرسة الفرير في الاسكندرية ، وكان ابي يرسل الينا المال الكافي ؛ ثم بعد

انقطاع المراسلات معه كان المال يأتينا من اخوالي في الولايات المتحدة الاميركية ، وهم من آل غانم من بكاسين (عم والدتي هو ابو سمرا غانم البكاسيني) . وبقينا في الاسكندرية حتى اوائل العام ١٩١٨ .

● سافرت انت وامك الى لبنان ؟

ـ لا ، بعدها جئنا الى القاهرة حيث تابعت دراستي في الفرير حتى انهيت دراستي فيها . نظمت شعرا بالفرنسية وكانت محاولاتي تدل على موهبة . كنت ضعيفا في العربية فنصح البعض امي بادخالي مدرسة القديس يوسف المارونية في القاهرة ، وهي كانت مدرسة موصوفة لتعلم اللغة العربية . رئيس المدرسة كان المونسنيور بولس رزق ، وابرز المعلمين الخوري منصور العقيقي من مزرعة كفرذبيان والخوري الياس . بقيت في المدرسة المارونية حتى العام ١٩٢٤ . في ذلك العام حاولت كتابة الشعر بالعربية . اذكر ان « الخوري الياس » طلب منا كتابة موضوع انشاء ، وقال لي بعد ذلك يا ابني هذا الاسلوب فرنجي والشعر العربي الذي تريد كتابته له اوزان وقواعد . الاوزان العربية لم تدخل في رأسي . اريد ان اكتب « ضياء » ولكن مع الوزن احيانا لا استطيع كتابتها ، لا يعود هناك امكانية لتعبيرك الشخصي ، تدخل تحت حكم الاوزان ، وهي تتصرف بك .. كتبت الشعر الطلق ، كتبت مقطوعة عنوانها « اذكريني » وارسلتها لـ « السياسة الاسبوعية » اهم مجلة في مصر عام ١٩٢٦ ، وكان يكتب فيها طه حسين ومحمد حسين هيكل وابراهيم عبد القادر المازني ، ومحمود عزمي ، فنشرت القصيدة ، ومطلعها :

« اذكريني اذا ما الشمس غابت في الافق
وهجم الليل بجيوش الظلام
ان نفسي اظلم منه
وحبي كان تعسا وشقاء
فاذكريني » .

بعدما نشرت القصيدة تشجعت وكتبت غيرها فنشرت في مجلة « الاخاء » لصاحبها بليم قبعين وهو فلسطيني مقيم في مصر متمكن من اللغة الروسية ، وقد كتب كثيرا في هذه المجلة .

● اشجعك هذا على احتراف الكتابة في الصحافة ؟

ـ دخلت الجامعة لاتعلم التجارة ، فتركت بعد سنتين ، ثم تعلمت في مدرسة الحقوق لمدة سنة واحدة . كنت مشاغبا ، اكثر من « وفدي » ، كنت « وطنيا » مع احمد حافظ رمضان . وقد طردت من مدرسة الحقوق بسبب قيادتي احد الاضرابات ، وعقب ذلك لم اعد استطيع متابعة دراسة الحقوق فقد صدر قانون يحصر دراستها بحملة البكالوريا في قسمها الثاني .

عملت كمراسل خاص للجريدة التجارية المصرية لصاحبها محمد نجيب ولاية ، وكانت لسان حال غرفة مدينة الاسكندرية ، الى جانب كتابتي في مجلة «الرقيب» لصاحبها جورج طنوس الذي كان اديبا وشاعرا ومؤثرا في المسرح المصري ، وقد كان في الوقت نفسه رئيسا لتحرير « كوكب الشرق » وهي لسان حال حزب الوفدوصاحبها احمد حافظ عوض ، وكانت جريدة يومية فعملت فيها كاتبا للصفحة الادبية . اذكر اني نشرت قصة « المراة والميسر » في صفحة كاملة وكان هذا فتحا بالنسبة لي ولسني . جاء احمد حافظ عوض وقال لي هذه قصة رائعة وزوجتي قراتها واهنئك . كتبت القصة كثيرا ، لكني ما لبثت ان عدلت عنها عائدا الى الشعر الطلق .

عملت ايضا في مجلة « الروايات المصورة » كان رئيس تحريرها سليم خوري . كنت اترجم روايات عن الفرنسية ، واحيانا اشاهد افلاما واكتب احداثها (« الشهامة اليابانية » عن احد الافلام) .كان صاحب هذه المجلة يدفع مكافاة النشر بحسب عدد كلمات النص.. كما عملت كذلك مع حسين شفيق المصري في صحيفتيه « البغبغان » و « المسمار » وهو من اصل تركي ولغته عربية عرباء .. اما المازني فقد اصدر عشرة اعداد من مجلته « الاسبوع » فعملت فيها لهذه الفترة الوجيزة . واذكر ايضا ان اول قصة ترجمتها نشرتها مجلة « المراة الجديدة » كما نشرت في مجلة « النيل » .

● اكانت الكتابة تكفي لاعالة البير اديب الشاب وامه؟ وامك بالمناسبة اكانت تعمل ؟

ـ لم تكن امي تعمل ، ... ... كنا نعيش خبزنا كفاف يومنا .. سكنا في القاهرة ، واذكر اني عملت ايضا سكرتيرا عاما لشركة السياحات الشرقية، واصحابها هم اسكندر يارد وجان سياج والدكتور سالم (قريب جبران تويني) .

● البير اديب الطالب المحرض على الاضراب ، الم يلعب دورا في الهم السياسي العام آنذاك ؟

ـ اثناء الثورة السورية الكبرى ، كان الوزير الفرنسي المفوض في القاهرة يحضر قداس الفصح عند الموارنة مهنئا . جئت ومعي شاب ، راينا علم الانتداب الفرنسي (العلم الفرنسي وفي وسطه ارزة) كنا في الكشاف الذي يشرف عليه شخص وطني من آل مخلوف. رفضنا الدخول تحت علم الانتداب ، ورفعنا علما بديلا (ازرق سماوي وفي وسطه ارزة) ، وبدانا نصرخ « تسقط فرنسا » .. اتى الخوارنة وقالوا : عيب ، فهذا يسيء الينا .

مرة حضر الى القاهرة قريبان لسلطان باشا الاطرش فاقمنا احتفالا في « المسرح الكبير » من اجل الثورة السورية ، لم يكن هناك جمع كبير . خطب حبيب جاماتي (اديب وناشر كبير له « تاريخ ما اهمله التاريخ » ، كان يحرر بالعربية وبالفرنسية) .. بعد الاحتفال بفترة كان الوزير المفوض الفرنسي متجها الى كنيسة الروم

الكاثوليك ، فانتظرناه في صالون الكنيسة وصرخنا « تسقط فرنسا ، يحيا الاستقلال » ، فاسكتني المطران بالتي هي احسن .

كنت ايضا اتصدر تظاهرات وطنية مصرية ، واجر تلاميذ المدارس المسيحية الفرنسية الى التظاهرات .

صديقي علي نجيب وانا الفنا « جمعية اللواء الاسلامي » . هو الرئيس وانا نائبه .. ثم « جمعية رقي الاداب » انا الرئيس وهو نائبي . وكنا نصدر بيانات سياسية . ومنها احتجاج على نفي اميل خوري من مصر ، وهو كان سكرتير تحرير « الاهرام » وكانت الصحيفة ضد الانكليز ومع الحركة الوطنية فاصدر اسماعيل صدقي قرار النفي (سعيد فريحة في ما بعد تحدى اميل خوري ان يكتب في « الصياد » مقالا ضد اسرائيل ويقبض الف ليرة ففعل وقبض !) .

● كاديب في الصحافة ، دعنا نتذكر معا اشخاصا واحداثا في عالم الثقافة في مصر ؟

ـ احمد شوقي : لم يكن يلقي قصائده ابدا ، كان جورج طنوس يلقيها عنه . اذكر كان مكتبي مع هذا الاخير في غرفة واحدة في « كوكب الشرق » ، دخل علينا احمد شوقي ودفع ١٠ جنيه لجورج طنوس كاجرة على القائه قصيدة له .

وقد كان لطنوس دور في امارة شوقي على الشعر . كانت هناك حفلة تابين للشيخ ابو العلى استاذ ام كلثوم وواضع اهم اغانيها (حوالي العام ١٩٢٦) . كانت ام كلثوم متشحة بالسواد واعضاء التخت الموسيقي جالسون على الارض ، وهي تغني :

« افديه ان حفظ الهوى او ضيع » .

واعقبها جورج طنوس ، كان بدينا ، وكان احمد شوقي جالسا في « اللوج » . تكلم طنوس عن ابو العلى وقال : « يجب تكريم العباقرة وهم احياء . وقريبا سنقيم احتفالا لمبايعة احمد شوقي باشا بامارة الشعر » . وبالفعل بدا الاعداد لحفلة المبايعة التي جرت اثناء اقامتي في السودان .

ـ مي زيادة : زرت صالونها لكني كنت صغيرا ، فرافقت بعض زائريها . كان في الصالون مثقفون يقراون الشعر ويناقشون شؤونا ادبية ونصوصا .

ـ خليل مطران : كان مثال الاخلاق الكريمة وعفة اللسان . عندما جاء إلى لبنان زرته مرارا ، وقد ارسلت اليه ليفتتح « راديو الشرق » في بيروت . كان مطران هو المجدد بين رعيله . كان وضعه صعبا . لبناني مسيحي ، ومع ذلك كان يعتبر من شعراء مصر الثلاثة « شوقي وحافظ ومطران » .. امضى حياته عازبا . واعانه على الحياة انه كان موظفا في الجمعية الزراعية الملكية المصرية ، وعمل لفترة في « الاهرام » .

ـ ابراهيم عبد القادر المازني : شاركت معه بتحرير مجلته « الاسبوع » وعندما زار لبنان زرناه في مصيفه انا وامين نخلة وفخري البارودي ويوسف مكرزل صاحب « الدبور » . اعجب المازني بقطعة من شعري نشرت في « الجمهور ؟ ، او « المعرض » . امين نخلة بدأ يهاجم شوقي ليرضي المازني ، فلم يبعث في نفسه السرور .

ـ توفيق الحكيم : تحدثت عنه عندما كان مجهولا ، كان يعمل في النيابة ، وينشر « يوميات نائب في الارياف » فلفت الانظار الى عمله الهام .

ـ الشيخ فريد حبيش : صديقي . كان سكرتير عام شركة مياه القاهرة . له كتابان «فظائع الثوب الاسود» و « النفس الحائرة » ، وله ايضا كتاب تجاري « تخاطب التجار » .

ـ طانيوس عبده : كان يترجم كثيرا بغير امانة . كتب في « الاهرام » زاوية « نقدات طائر » ، فقيرا كان ، شاهدته مرارا في سبلنديد بار في القاهرة . ارا الحصول على مال من نجيب متري صاحب دار المعارف الذي نشر له عدة كتب . لقد اغتنوا من كتبه . كان مريضا بسرطان الدم ، واستعطى بدل السفر ليعود الى لبنان .

ـ توفيق حَبيب : كان ينشر باسم « الصحافي العجوز » ، وكنت على صلة وثيقة به .

ـ اسكندر شلفون : والد زوجتي ، كان شاعرا وعالما موسيقيا ، توفي عام ١٩٣٤ لدى تهدم مقهى « كوكب الشرق » في بيروت اذ كان جالسا يترجم « الجبل الملهم » لشارل قرم ويلحنه . وقد بحث هذا الاخير بمن يبحث عما انجز من الترجمة بين الركام .

اسس شلفون المعهد الموسيقي في مصر . نال جائزة اولى اذ لحن قصيدة لمصطفى صادق الرافعي في مدح الملك .

عندما توفي في بيروت كان قد انجز « القاموس الموسيقي» واطلع عليه آنذاك وزير التربية جبران تويني الذي طلب مني اقناع الورثة بطباعته على نفقة الوزارة لقاء ..٥ ليرة ، دفناه انا وشقيقه نجيب شلفون وصلاح المنذر . رأيت احد تلامذته من آل مجدلاني فقال لي ان كتابات اسكندر شلفون اخذها موظف في السفارة المصرية وبصحبته معاون في الشرطة اللبنانية ، و « القاموس الموسيقي » بين تلك الكتابات (كان شلفون يحمل الجنسية المصرية) .

الديبلوماسي المصري كان نائبا للقنصل ، وكان موسيقيا .

بعض نتاج شلفون لا يزال موجودا ومنه اوبرا « البابا » المخطوطة ، وهي اوبرا شعرية قراها سعيد عقل واعجب بها والقى عنها محاضرة في الاذاعة ، واستعارها الياس ابو شبكة ثم اعادها الي مقصوصة ، وما لبث ابو شبكة ان اصدر مجموعته الشعرية «الالحان»

التي تبدو بعيدة عن سائر شعره . ومن يراجع ويقارن يلاحظ شدة التأثر بـ « السبايا » .

ـ وديع صبرا مدير الكونسرفاتوار وملحن النشيد الوطني اللبناني قدم في باريس رسالة جامعية عن ربع الصوت في الموسيقى الشرقية . وصبرا ابتكر بيانو يعزف ربع الصوت وحمله الى مصر ليستشير اسكندر شلفون . وعندما عاد شلفون الى بيروت لم يعينوه استاذا في الكونسرفاتوار .

● هل كنت تشاهد المسرح المصري ؟ وماذا بقي في ذاكرتك من اجوائه واعلامه ؟

ـ كانت لدي مجموعة مرجعية عن المسرح المصري ، بعتها مع ما بعت من اوراقي وكتبي الى مكتبة الجامعة الاميركية . كنت مفلسا فاشتروها بـ ٣ آلاف ليرة فقط . والمجموعة استعان بها محمد يوسف نجم في اطروحته .

كنا شلة : انا وجورج طنوس ووالد احسان عبد القدوس واحمد بك رشدي واحمد زكي باشا (مدير عام المطبوعات سابقا في الولاية العثمانية) ، وكنا نحضر مسرح الريحاني ويوسف وهبي وجورج ابيض وعزيز عيد . كنت مراهقا واغرمت بالمغنية « ملك » كان محمود الفلكي الناقد الفني .

نجيب الريحاني : اسمه الاصلي نجيب ريحان ، وهو لبناني ، كان موظفا في البنك الزراعي الاهلي وما لبث ان ترك وانصرف للمسرح وكانت شخصيته الاكثر شعبية « كشكش بيه » . الريحاني هو احد بناة الروح الوطنية المصرية . بديع خيري يكتب ، وسيد درويش يلحن ، والريحاني يظهر في شخصية « كشكش بيه » وكان هذا العمل يخرج من مكان المسرح ليردده الشعب .

علي الكسار : « بربري مصر الوحيد» . كان مسرحه بارزا .. وفي مسرح يوسف وهبي كنا نغرم بالممثلات .

واذكر واحدا اسمه انطون يزبك ، الف ثلاث او اربع مسرحيات ، منها « الذبائح » التي مثلها يوسف وهبي وكانوا لدى عرضها يحضرون سيارات الاسعاف لان بعض المشاهدين يغمى عليه . ومنها « عاصفة في بيت » التي مثلها جورج ابيض ، و « الغربان » .. كان يكتب بالعامية ، ولمع كثيرا كمؤلف مسرحي .

● بعض الدارسين ينظر الى رعيل الشاميين معتبرا انهم ارتاحوا للوجود الاستعماري الانكليزي ، ما رايك ؟

ـ كانت جريدة « المقطم » التي يصدرها فارس باشا نمر ، شريك يعقوب صروف في تاسيس « المقتطف » وقد تولى فؤاد صروف لفترة رئاسة تحريرها وكانت تؤيد سياسة الانكليز .

هناك فئة كانت تعتقد ان زوال الانكليز هو زوال لها .. وفئة اخرى من الشاميين كانت في « الاهرام » وتناصر استقلال مصر .

● الشعب المصري كان ايجابيا تجاه الدولة العثمانية بخلاف الشاميين ؟

ـ عندما قام الوفد المصري للمطالبة بالاستقلال ، كوفاء للوعد الذي اعطي خلال الحرب العالمية الاولى ، كان ينظر اليه على انه استقلال مصر ، والشعار « مصر للمصريين » ، ولم يكن هناك كلام عن دولة عثمانية ، وكان متمع سعد زغلول نخبة من المصريين ، وصور زعماء الوفد تطبع وفوقها الهلال والصليب ، ومن النخبة هذه سينوت باشا حنا ومكرم باشا عبيد ومرقص حنا باشا . وكان خطيب الثورة المصرية هو القمص سرجيوس الذي كان يخطب في الازهر من اجل الاستقلال .

● قلت في ما قبلت انك سافرت الى السودان هل تتحدث عن تجربتك هناك ؟

ـ في العام ١٩٢٧ كنت في مصر في شبه ضائقة مادية وكان الوفد خارج الحكم . وكان لي صديقان من مدرسة الموازنة هما ادمون بحاح وتاصيف الريس (اصبح فيما بعد موظفا في وزارة الداخلية اللبنانية وهو من حاصبيا) قد سافرا الى السودان فعزمت على السفر الى هناك كي انتهي من هم الرزق .

اخبرت جورج طنوس واحمد حافظ عوض واللواء الشاعر محمد فاضل باشا بعزمي على السفر فتكلموا مع جماعة في « الوفد » على ان اكون مراسلهم السري في السودان ، ففي تلك المرحلة كان المصريون لا يستطيعون دخول السودان ، وانا لبناني ، اخذت في ذلك شهادة من المطران خانة .

كان السفر الى السودان شاقا : ١٨ ساعة بالسكة الحديد الى اسوان ثم اكثر من ليلتين بالمركب ثم ٢٠ ساعة بالسكة الحديد .. بعت بعض اغراضي واصطحبت امي .. وصلنا الى السودان .كان هناك الموسيقي نجيب شلفون وصديق اسمه الياس الاشقر .

تفتحت العين علي لانني لم اتقدم بطلب سفر الى « وكالة السودان في مصر » التي تدفع نفقات الآتين للعمل في السودان ، ودفعت انا النفقات (كنت اجهل هذا الامر) ولانني صحافي معروف في مصر فلماذا اعمل في السودان؟ احسست بالمصاعب ، كلفوا سودانيا بمرافقتي ، عندها ارسلت رسائل الى اللواء محمد فاضل باشا وصديق اخر هو الدكتور اللواء سليم باشا موصللي ! (وانا اعرف انهم سيطلعون عليها) اخبرهما اني اتيت الى السودان ، ولم اعمل بعد ، فاهتم اللواء بالمسألة ، وهكذا توقفت المضايقات . وقدمت امتحانا لدخول دائرة المالية فنجحت وعينت محاسبا في الدائرة في الخرطوم .

نشرت الى جانب عملي في مجلة « حضارة السودان » ومن آن لآخر كنت ارسل اخبارا لمصر . وقد اتصلت بسليمان داود منديل وهو مسلم متدين من اصل يهودي ؛ وكان

يملك مطبعة في الخرطوم فدفعته لاصدار جريدة سميت « ملتقى النهرين » اتخذت نهجا وطنيا بقدر ما تسمح بـه الظروف والرقابة .

لم يكن البيض يختلطون بالسودانيين ، واسست حزبا سريا يدعو الى وحدة مصر والسودان ، وفي يوم ارسل في طلبي صموئيل بك عطيـة في قسم المخابرات البريطانية (كنت آنذاك اراسل « الرقيب » المصرية سرا) وقال لي هل سمعت ان هناك من يراسل الصحافة المصرية من هنا ، قلت لا اعرف ، فقال : نحن سوريون ، وجميع السوريين يعملون ، وهنا مصدر رزق ، ونحن لا نستطيع العمل ضد النظام . هناك حركة غير إعتيادية في مصر فاذا علمت شيئا اخبرني . عند ذلك انتابني الخوف ، وفي يوم جاءني ابن الزبير باشا الزعيم السوداني الذي كان قد ثار على الانكليز . الابن كان على ما يبدو يعمـل في المخابرات لكنه ذو احساس وطني . فقال لي : احـرق اوراقك ، كنت املـك دفتر مذكرات ودفتر شعر ، فاحرقتهما ، وكانت هذه هي المرة الاولى التي احرق فيها انتاجي .

عام ١٩٢٨ اخذت اجازة الى مصر ، وكنت قـد اتخذت قرارا بعدم العودة الى السودان ، لكن وبسبب الوضع السياسي في مصر ، الحكم كان معاديا للوفد ، لم ابق هناك اكثر من شهرين عدت بعدهما الى السودان ، وهنا حدثت نادرة طريفة ، فقد انتقلت العمل كمحاسب منتدب من دائرة المالية الى قوة دفاع السودان ، وهناك تعرفت الى رجل سوداني اسود وله شاربان اسمه عبد القادر بو عكر ، دعاني بو عكر هذا الى طعام الغداء في بيته وكان يسكن في ام درمان ، دخلت الى الصالون فرايت شجرة عائلتنا نعمة ضو ، معلقة على الحائط ابتسمت واعتقدت ان بو عكر اشترى لوحة الشجرة العائلية من واحد من آل نعمة ضو كان قد سافر وباع اثاث بيته ومن ضمنه هذه اللوحة . سالت عبد القادر من اين حصل على الشجرة ، فأجاب بانها شجرة عائلته ، قال انا من عائلة ابو عكر ، ابي لبناني ، وعمي فلان ، وابن عمي هو جوزيف ابو عكر : ترجمان السفارة الفرنسية في مصر ، والمفوض السياحي في لبنان بعد ذلك وروى ان والده اسلم خلال حرب المهدي وتزوج ، وقد كتب لابن عمه المؤرخ جرجي بك صفا ، وعرض عليه المسألة فأجابه بان يبقى حيث هو ، فاسلم ، ونحن اولاده .

وبعد فترة ! وعندما عدت الى لبنان ، وكان الانكليز يسعون الى سودنة السودان ، من اجل اعطائه استقلاله رأيت على غلاف مجلة سودانية صور ثلاثة رجال عينوا لسودنة السودان ومن بينهم كانت صورة شقيق عبدالقادر، وهو اميرالاي وطبيب فتصور اننا نحن اللبنانيين شاركنا في سودنة السودان .

ومرة ، في بيروت ، زارنا اخوه ، وهو اسود البشرة ، ومعه رسائل من جرجي بك صفا ، كان قد ارسلها الى ابيه ، ويريد التعرف الى الاهل ، فأرسلته الى اولادجرجي صفا ، ثم دعوه الى دير القمر واحتفوا به هناك ، وادخلوه الى كنيسة دير القمر .

● وكيف كانت عودتك الى لبنان ؟

ـ عام ١٩٣٠ كان لي اجازة لمدة ثلاثة اشهر ، فقررت الذهاب الى مصر للعمل في الصحافة ، حيث كانت الحكومة في يد الوفديين . وعندما وصلت الى الاقصر ، سمعت بائع الصحف يصرخ : « استقالة الوزارة يا جدع » والف الوزارة الجديدة اسماعيل باشا صدقي ، اليـد الحديدية والمعادي للحريات ، ففهمت ان الاقامة في مصر صارت مستحيلة ، وكان معي في القطار رجل اسمه رشيد مطر وهو من ضهور الشوير ، فنصحني بالمجيء الى لبنان لقضاء الاجازة ، والتعرف الى وطن ابي ، فاكملنا امي وانا طريقنا الى لبنان وصعدنا الى ضهور الشوير .

وفي لبنان كان اوغست باشا اديب ، رئيسا للوزارة اللبنانية ، وانا كنت قد كتبت له كلمة تهنئة بتوليه الوزارة ، فبعث الي برسالة الى ضهور الشوير يطلب فيها رؤيتي ، قابلته وحضر المقابلة رئيس ديوان الوزارة الامير فايق شهاب والد النائب السابـق عبد العزيز شهاب ، وعندما دخلت نظر الي الامير فايق وقال لي، سعيد اديب، يوم هجرته كان يشبهك ، انه انت ، نظر الي اوغست باشا وقال انت سعيد اديب وتأثر كثيرا .

وقررت ان ابقى .

اكتشفت في لبنان هذا الجمال ، كلما التفت تجد لوحة امامك ، وكانت ضهور الشوير رائعة ، فقررت ان ابقى .

عينوني في مصلحة البندرول (وهي مصلحة كانت تقوم بوضع البندرول اي ختم الدولة على علب السجاير). عينوني في وزارة المالية مفتش بندرول في صيدا ، فرفضت لاني لم اكن اريد الاقامة هناك .

ذهبت الى جريدة « النداء » التي كان يصدرهـا كاظم الصلح وتقي الدين الصلح ، وكان مديرها هو عادل الصلح ، وهي جريدة وطنية ، وكنت انا معروفـا بصفتي الوفدية ، فاحتفوا بي ، وكان يعمل فيها آنذاك توفيق يوسف عواد وكامل مروة واحمد زكي الافيوني .

● اذا عدت في لبنان ، الى الصحافة ؟

ـ بدات عملي الصحافي بفضيحة ، فقد كان هناك احتفال بازاحة الستار عن النصب القديم للشهداء ، وفي برنامج الاحتفال سوف يلقي اوغست باشا اديب ، رئيس الوزراء ، خطابا باللغة الفرنسية ، وذلك بمناسبة وجود الماريشال فرانشي ديسبيري ، الذي سيرعى الاحتفال. فكتبت في « النداء » مقالا غير موقع عن بلد العجائب الذي

بخطب رئيس وزارته باللغة الاجنبية ، غير ان كاظم الصلح وضع توقيعي على المقال . على اثر الضجة التي اثارها المقال ، تغير البرنامج ، بحيث ان موسى نمور يفتتح الاحتفال بخطاب ، ثم يلقي رئيس الوزراء خطابه بالفرنسية اكراما للضيف .

بعدها قمت بحملة على التمثال نفسه ، الذي صممه الفنان يوسف الحويك ، لأنه يعبر عن الطائفية ، اذ نرى امراة مسيحية من جهة وامراة مسلمة من الجهة المقابلة، من اجل الوحدة الوطنية . وقمت باجراء حديث مع احد الشهداء الاحياء ، بترو طراد ، الذي حكم عليه بالاعدام ، فسألته عما اذا كان يوافق على هذا النصب ، فقال لا . نشرت الحديث كمانشيت في « النداء » .

واللافت، ان المقال كان له تأثير كبير ، اذ قام مناضل من آل سليم من الشوف ، بكسر انف النصب ، فقبض عليه ، وخلال محاكمته قدم المتهم تصريح بترو طراد في « النداء » لتبرير دوافعه ، فنال البراءة .

كما عملت في « العاصفة » مع كرم ملحم كرم ، ونشرت فيها الكثير ، وعملت معه في « الف ليلة وليلة » حيث قمت بترجمة قصة عن اللغة الفرنسية .

عام ١٩٣١ حصلت على رخصة لاصدار جريدة باسم « البدائع » ، واعلن عنها بشارة الخوري (الاخطل الصغير) في جريدته ، ثم ما لبث ان اقنعني بالعدول عن إصدارها، على ان تكون كملحق في جريدة الاخطل الصغير « البرق ».

كما عملت في « المعرض » لميشال زكور ، وكنت قد راسلتها خلال اقامتي في السودان . وكان يعمل فيها ايضا عصبة العشرة المؤلفة من ميشال ابي شهلا والياس ابو شبكة وفؤاد حبيش وخليل تقي الدين ، وقد هاجمت « عصبة العشرة » احمد شوقي والاخطل الصغير ، واضر هذا الهجوم الاخطل الصغير لانه كان يرعى الياس ابو شبكة ورئيف خوري ، ويصحح لهما .

في « المعرض » ، عملت مع رسام هو رافت بحيري، وكان صديقا لي ونفكر باصدار مجلة، حاولنا محاولة اولى مع الاخطل الصغير في « البرق » ، التي كانت تحمل كتابة، يشترك في التحرير ، البير اديب . واصدرنا فيها عددا خاصا ، عن جبران خليل جبران ، ثم تركنا « البرق » وعملنا في « الشعب » لصاحبها الشاعر امين نخلة .

● هل تحدثنا قليلا عن الحياة الادبية في بيروت آنذاك ؟

ـ كنا في البداية نجتمع في مقهى « شقير » ، الذي اصبح مقهى « فتوح » في ساحة البرج ، وكنا مجموعة من الادباء والمفكرين ، انا ورافت بحيري وياسر الادهمي وعبد الله القبرصي ، جان جلخ ، ميشال ابو شهلا ، الاخطل الصغير ، ابراهيم سليم النجار ، اميل لحود ، صلاح المنذر ، سعيد الصباغة ، يوسف ابراهيم يزبك ، علي ناصر الدين ، عارف الغريب ، حنا غصن . وكان البعض يأتي من الشام والعراق قاصدا المقهى .

مرة كنا في المقهى الاخطل الصغير، وانا، عندما جاءنا رجل مصري وقال انه والد مغنية ، وستغني في « كوكب الشرق » قصيدة للاخطل الصغير ، ودعانا الى حضور الحفلة . ذهبنا ، فلاحظت ان مبنى « كوكب الشرق » يرج عند مرور الترامواي ، جلسنا قرب العمود ، ثم غادرنا . وفي صباح اليوم التالي انهار مبنى « كوكب الشرق » ، وحدثت الكارثة .

● وماذا عن عملك في راديو الشرق ؟

ـ عام ١٩٣٨ طلب مني انشاء راديو الشرق ، وهو من المصالح المشتركة بين سوريا ولبنان ، وكنت في هذه الاثناء قد اسست المجمع الموسيقي الشرقي الذي كنت رئيسا له ، وقتها لحن نجيب الشلفون قصائد لخليل تقي الدين وامين نخلة وصلاح لبكي وجبران ورياض المعلوف وكان التلحين مبتكرا ، والمغني هو محمد البكار ، مغن موهوب ، ذهب بعدها الى مصر ، واقمنا حفلة في التياترو الكبير ، يومها تحمس جبران التويني للموضوع وتمت الحفلة ، وكتب توفيق يوسف عواد ان التلحين والانغام تتحرر من التأثير المصري ، على يد الشلفون .

في مسألة راديو الشرق حدثت مشكلة ، السوريون يريدون سوريا واللبنانيون يريدون لبنان ، وانا كنت على اتصال بالكتلة الوطنية في سوريا ، الى درجة انني كنت وكيل مشروع الفرنك في لبنان ، وهو مشروع جمع التبرعات الذي وضعه فخري البارودي من اجل دعم الصناعة الوطنية ، فاقترح البارودي تعييني على اعتبار انني ماروني ومسيحي وسوريا ترضى بي ، وانا كنت مناضلا ضد الاستعمار الى درجة ان جريدة « الاوريان » سمتني الماروني المشلول ، نظرا لمواقفي ضد الاستعمار .

قبلت العرض مشترطا ان لا اكون موظفا ، وكان ذلك في زمن الكونت دومارتل ، وكانت مسالة المعاهدة اللبنانية ـ الفرنسية والسورية ـ الفرنسية ، اي كانت مرحلة تنازلات من قبل الفرنسيين . وعملت في الاذاعة ، واكتشفت اني لا املك اية تجهيزات حقيقية فاضطررت الى جلب عازفين وملحنين منهم نجيب الشلفون وسليم الحلو ونقولا المني ، وبحثنا عن الاصوات فأتاني فليمون وهبي ، ووديع الصافي ، وكان اسمه وديع فرنسيس . فأعجبت بصوته وقلت له انت تغير اسمك وتصير وديع الصافي ، وهكذا كان .

وقد احدثت تغييرا في طريقة عمل الاذاعة، في الماضي كان المغني يغني وقتا طويلا ، طقطوقة فمونولوجا فدورا ، فقلت هذا لا يجوز ، الاذاعة ربع ساعة ، يغني المغني ربع ساعة فقط ثم يأتي غيره ، واذا غنى رجل تغني امراة من بعده وبعدها حديث . طريقة العمل هذه كانت جديدة واثرت على العالم الاذاعي العربي باسره ، الى درجة ان

يحيى اللبابيدي جاءني من الاذاعة الفلسطينية ليرى طريقة الربع ساعة هذه .

ثم نشبت الحرب العالمية الثانية ، وبدات الدعاية ضد النازية ، وسلموني مركز الدعاية ضد النازية والفاشية ، انشات مكتبا وعمل معي عمر فاخوري والياس ابو شبكة ومحمد النقاش وامين الغريب ، ورئيف خوري، كما تعاون معنا تدري قلعجي ، وفاضل سعيد عقل واحمد دمشقية ونجيب اليان وكريم عزقول وميشال اسمر .

● وكيف انشات مجلة « الاديب » ؟

ـ قبل عملي في الاذاعة ، كنت اعمل في الصحافة ، ولكنه عمل لا يطعم خبزا ، وقد ساعدني صديقي الداماد احمد نامي بك رئيس الدولة السورية السابق ، وصديقه عارف بك النعماني الذي كان يعمل مديرا لسباق الخيل ، فعينني مساعدا للسكرتير العام للسباق الياس الشدياق ، براتب ضخم ، فانقذني هذا الراتب .

في هذه الاثناء كانت « المكشوف » لفؤاد حبيش ، تصدر ويكتب عليها « يشترك في التحرير البير اديب » ، وكانت مجلة عارية ، وكان فؤاد حبيش يكتب كثيرا عن العري .. اخلت صفحتي من « المكشوف » وحررت فيها اخبارا ادبية وفنية لا علاقة لها بالعري ، وكنت اوقع باسم « كازانوفا » ، وبعد السنة الاولى حاولت اقناع فؤاد حبيش بتحويل « المكشوف » الى مجلة ادبية ، وعاونني في ذلك خليل تقي الدين ، لكن حبيش اتفق مع تقي الدين وجرى تحويلها الى مجلة ادبية .

في تلك المراحل، كانت فكرة المجلة تراودني، عرضت الفكرة على الدكتور نقولا فياض ، وكان يلقب بخطيب الشرق : فكان لطيفا معي ، وعندما اصدرت « الاديب » قال لي انه لم يقبضني بشكل جدي . وكنا ، الدكتور نقولا فياض ، ورئيف ابي اللمع وحبيب ثابت وانا ، نجتمع في منزل ابي اللمع من اجل اعداد المجلة ، لكن هذه الاجتماعات اوصلتني الى الياس ، وقد كتبت لصديقي الشيخ فريد حبيش في مصر ، اقول له اننا نجتمع كل ليلة فناكل ونجتمع ، ثم نجتمع اجتماعا اخر .

وبعد عملي في مكتب الدعاية ضد النازية والفاشية، قررت اصدار المجلة ، فطلبت رخصة ، لكنهم تاخروا في اعطائها ، وقد صدر العدد الاول من مجلة « الاديب » في اول كانون الثاني عام ١٩٤٢ ، صمم غلافه ، الذي بقي الى اليوم الفنان رافت بحيري ، وهو الذي شجعني كثيرا على اصدار المجلة . اما كتاب العدد الاول فكانوا : البير اديب ، عمر فاخوري ، جبران التويني، فريدنجار، ميشال ابي شهلا ، الياس خليل زخريا ، امين الغريب ، منير النصولي ، كرم ملحم كرم ، صلاح الاسير ، الياس ابو شبكة ، فلك طرزي ، اسكندر الشلفون ، ميشال طراد ، رضوان الشهال ، جبرائيل جبور ؛

في « الاديب » ، تشكلت في اواخر عام ١٩٤٣ ، اسرة تحرير مجلة « الاديب » التي اتخذت لنفسها منهجا سياسيا ، وكان من اعضائها : الشيخ عبد الله العلايلي ، الشيخ الياس خليل زخريا ، نقولا فياض ، نور الدين بيهم ، محمد علي الحوماني ، صلاح الاسير وانا . وكنا نصدر بيانات باسم اسرة « الاديب » ، وقد اقلقنا راحة الحكومة . ففي هذه السنوات ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦ ، كانت « الاديب » ملتقى الزعماء السياسيين ، فياتي الى المكتب عبد الحميد كرامي ، كمال جنبلاط ، كميل شمعون ، احمد الاسعد ، سامي الصلح ، وانشانا كتلة التحرر الوطني التي كان يرئسها عبد الحميد كرامي ونائبه الفرد نقاش ، وكنت انا امينا للسر ، وهذه الكتلة ساهمت في المعارضة ضد الشيخ بشارة الخوري .

الشعر الحديث ، وخاصة الشعر العراقي ، نشا كله تقريبا في مجلة « الاديب » ، نازك الملائكة ، عبد الوهاب البياتي ، بلند الحيدري ، صفاء الحيدري، والسياب الذي لم ينشر كثيرا في « الاديب » . وغيرهم . ومرة ارسل لي احد كبار الشعراء العراقيين المعاصرين مجموعة من القصائد للنشر . وبينها قصيدة واحدة من الشعر الحر، وكتب لي انه ينهج في هذه القصيدة على منوالي . فنشرت القصيدة الحرة ، واهملت الشعر العمودي . وبعد مدة كتب هذا الشاعر الي بانه لاحظ اهمالي للقصائد العمودية وانه قرر ان يكتب الشعر الحر ، وارسل الي العديد من قصائده الجديدة . كما نشات القصة العراقية في الاديب عبد الملك نوري وغائب طعمة فرمان وشاكر خصباك وفؤاد التكرلي .

في المرحلة الاخيرة بعدت « الاديب » عن السياسة وصارت توجيهية قومية ، لان الاحزاب كثرت والمشكلات كثرت ايضا ، فانا تقوقعت ، لانني اعتبرت هذا الواقع نكسة للقومية العربية ، صراعا بين الدول والاحزاب .

«وتشتتوا فرقا فكل قبيلة فيها امير المؤمنين ومنبر»

انتقلت من المكتب الى البيت ، لان حالة « الاديب » المادية ساءت ، في البداية كان مكتبنا في اللعازارية في وسط البلد ، ثم انتقلنا الى باب ادريس بعد هدم المكتب ، ثم الى البيت . وان البيت على خطوط التماس ، وكما ترى ، اصدرها وحدي على الرغم من كل الصعوبات .

انا اعتبر « الاديب » مسجلا للحركة الثقافية والفكرية في العالم العربي ، فانشر جميع الانواع، الشعر العمودي والشعر الحر ، لكن الشرط الوحيد هو الجودة .

والآن بعد هذا الكفاح الطويل ، انا لا املك شيئا ، اترك لابنتي ندى وهدى شرفا حقيقيا ، وهو انني كنت رجلا شريفا .

● هل تحدثنا قليلا عن بعض الشخصيات الادبية

في لبنان ؟

ــ رئيف خوري : كان واحدا من اعز اصدقائي ؛ وكان ينشر في « الاديب » ، بشكل دائم ، وهو كاتب عميق ومتمكن .

ــ سعيد عقل : جاءني صديقي صلاح لبكي ، وقال انه يريد تقديم شاعر جديد الي وهو من مدينة زحلة ، وجاء سعيد عقل ، وكان شابا خجولا ، فاسمعنا قصيدة « المجدلية » وهي قصيدة رائعة ، ثم اسمعنا قصيدة ثانية ، وقال انه يكتب شعرا بالعامية ، واسمعنا بعضا منه، قلت له ان شعره العامي رائع، وسالته لماذا لا ينشره، فاجابني بانه لن ينشره . ثم قلت له ان المفردات تنقص قصائده ، لانه يكاد يعيد المفردات نفسها ، فوافقني على ذلك .

ــ الياس ابو شبكة : كان يحب بشكل عذري ، ولم يكن يقيم علاقة بالمومسات ، هذا كلام فقط .

ــ بشر فارس : عندما مات كتبت لقد سقط تاج المجد عن راسنا . هذا رجل رائع . وعندما هاجم خروشوف الرسم الحديث ، نشر في « اخر ساعة » في مصر مجموعة من الدراسات عن الرسامين التجريديين الروس ، وكان خبيرا في الفن الاسلامي ، بشر فارس هو في الاصل من بلدة بحرصاف ، وكان امينا لسر المجمع العلمي في مصر ، وقد نشر له يوسف الخال مسرحية شعرية هي « جبهة الغيب » .

ــ ثريا ملحس : نهجت على نهجي في اول الامر ، فنشرت لها ونجحت ، خاصة في مجموعة اسمها « النشيد التائه » .

● وماذا عن منشورات « الاديب » ؟

ــ نشرنا الكثير من الكتب ، بينها « لا هوادة » لعمر فاخوري ، « الواحة » لصلاح الاسير ، « سارق النار » لخليل الهنداوي ، « والمعري ذلك المجهول » للشيخ عبد الله العلايلي ، « عشتروت وادونيس » للدكتور حبيب ثابت ، و « سحر » للدكتور بديع حقي ، و « الليالي والنجوم » و « بنت الساحرة » للدكتور عبد السلام العجيلي ، « وفي بلاطات الملوك » لنسيم نصر ، وديوان عمر ابو ريشة .. وغيرها .

● ننتقل الان الى عملك السياسي في لبنان ، فانت احد مؤسسي الحزب التقدمي الاشتراكي ؟

ــ انشات في البداية جماعة الوعي العربي بالاشتراك مع الشيخ عبد الله العلايلي والياس خليل زخريا ومحمد علي الحوماني وصلاح الاسير ونور الدين بيهم ، ثم ضمت جماعة الوعي العزبي الى عصبة العمل « القومي » .

وفي ١١ تشرين الثاني عام ١٩٤٣ ، وعند اعتقال رئيس الجمهورية اللبنانية الشيخ بشارة الخوري ورفاقه في راشيا ، فرضت علي الاقامة الجبرية في منزلي الكائن في طريق الشام . وجاءني ليلا صحافي معروف يعمل في الامن العام وقال ان هناك تقريرا يتهمني بتهريب السلاح الى بشامون ، وايقنت ان الفرنسيين يريدون الايقاع بي هذه المرة ، فاعطيته معلومات لا تؤدي الى ادانتي . وعاد بعد فترة ليقول لي انهم كتبوا على الملف « للحفظ » ، وهكذا تلافيت ملاحقات الامن العسكري . وقد صادر الفرنسيون اوراقي ، ومن ضمنها مجموعة شعرية لم تنشر، ومذكرات ، ومجموعة رسائل .

ومرة جاءني كمال جنبلاط ، وكان متتبعا للاديب ، وكان مشتركا في مجلة « الاديب » ، وانا رايت فيه شابا مثقفا وساندته كثيرا ، ثم اقترح انشاء حزب سياسي فتمنيت عليه البقاء في الميدان التوجيهي كما كان شكيب ارسلان ، لكنه اصر ، وقررنا ان يكون الحزب اشتراكيا وسميته الحزب التقدمي الاشتراكي ، وكنا مجموعة مؤلفة من المحامي فؤاد رزق وجورج فيليبيدس وجميل صوايا والشيخ عبد الله العلايلي وفريد جبران وكمال جنبلاط وانا ، فكتبنا نظام الحزب وقانونه الشيخ العلايلي وانا كما ساهم فؤاد رزق في الكتابة ، ثم اعلن الحزب واعلن جنبلاط رئيسا وانا امينا عاما للسر .

وفي عام ١٩٤٨ ، دعينا الى مهرجان كبير في عاليه ، فجاءت الوفود من كل جهة ، وانا القيت خطابا في المناسبة، دعوت فيه الى تأييد نضال الشعب الفلسطيني في ارضه، على ان تكون البلاد العربية حزام امان تمده بالمعونات ، كما كان شان الجزائر .

● نعود الى الشعر ، فانت شاعر في الاساس ، لكنك لم تنشر سوى مجموعة شعرية واحدة هي « لمن » فما هي ظروف نشرها ؟

ــ جاءني يوما السيد مشاقة ، مدير دار المعارف بمصر ومعه عادل الغضبان المشرف الادبي على الدار ، وطلبا مني مجموعة شعرية ، وانا لم اكن قد اعددت شعري المنشور في مجموعة جاهزة ولكن بناء على الحاحهما طالبت بمبلغ الف ليرة واعطائي ٢٥٠ نسخة ، فوافقا ، ووضعاني بذلك امام الامر الواقع ، فجمعت ما تيسر من قصائدي المكتوبة منذ عام ١٩٢٦ . واعطيته اياها . ولدي الان في منزلي مجموعة شعرية ، ليتها تسلم من القصف والنهب .

انا لا اكتب الشعر هكذا ، اشعر بانفعال ، وتحت تاثيره اذهب في شبه غيبوبة ، واكتب القطعة الشعرية من اولها الى اخرها ولا اتوقف الا عندما تنتهي . وعندما يعود وعيي الي لا اعدل فيها ولا اغير . واذا لم يحصل الانفعال فانا لا اكتب .

انا في الاساس نظمت الشعر بالفرنسية ، ثم حاولت بالعربية ، فوقفت الاوزان في وجهي ، وكنت اشعر ان الوزن يقف عقبة في وجه الفكرة التي تعتمل في مخيلتي ، فلجات الى هذه الطريقة الجديدة ، التي اعبر فيها عن نفسي بشكل افضل . نشرت في كبرى المجلات الادبية . مجموعة « لمن » كتب عنها ما لم يكتب عن كتاب ، كتب

لحظات الوداع

*

كيف آسى وقت الوداع وقد صا ... فحت روحي بنظرة من خشوع
وتلاقي الكفان في نبضات الـ ... خوف والحزن للفراق المريع
ووجمنا والعين بالعين غابت ... في بحار الاسى وراء الدموع
ووقفنا من خلف باب لنبكي ... كل اعماقنا ليوم الرجوع
تتمنين وصلنا ابدينا ... دون عود لشملنا المقطوع
وشعاع المساء يوريك حزنا ... وذبولا كذائبات الشموع
خفقت من لحظة الفراق فاسبلـ ... ـت جفونا في حرقة وخضوع
وافترقنا والليل يرخي سدولا ... فوق ليل الفراق بين الضلوع

الجفر ـ السعودية ... علي دمر



احمد زكي ابو شادي واحمد امين وزكي المحاسني وابراهيم العريض ، ويوسف الخال كتب عن « لمن » قائلا انها شعر المستقبل حتى ان ايليا ابي ماضي كتب في جريدة « السمير » ، هذا ليس شعرا ولكنه شيء جميل .

لم اصدر مجموعات شعرية اخرى بسبب هموم المجلة وانصرافي لها ، وعندي الان مجموعة شعرية نهجت فيها اسلوبا اكثر تطورا .

● وكيف ترى الان الى الواقع الثقافي العربي ؟

ـ لا شك ان هناك بواكير تبشر بالخير ، ولكن في الفترة السابقة كان هناك نهضة كبرى ، وكان هناك اسماء ضخمة . الان نحن في حالة جمود ففي ذلك العصر لمع طه حسين العقاد ومحمد حسنين هيكل واحمد شوقي وخليل مطران وغيرهم .. وهذا الان غير موجود .

● والموت ، الا تخاف من الموت ؟

ـ قبل الجواب على هذا السؤال اريد ان اخبر حادثة جرت معي خلال الحرب الاهلية عام ١٩٥٨ . فهناك شخص اسمه البير ديب خلق لي الكثير من المشكلات ، وكان يتعاطى في السياسة ويصدر منشورات ضد اليسار، جاءني محمد دكروب وقال لي ماذا تفعل يا استاذ ، فاصدر تبيانا اعلن فيه ان لا علاقة لي بما ينشره البير ديب . وفي ثورة ١٩٥٨ قتل البير ديب كان عند حلاق في راس بيروت واغتيل ، فاذاعت وكالات الانباء ان البير اديب قد قتل . فبدات ترد برقيات التعزية ، والصحف تنشر التابين والقصائد . والذي اشاع خبر موتي هو حبيب جاماتي الذي كان يعمل في مجلة « المصور » في مصر . ونشرت جميع المراثي في مجلة « الاديب » تصور فانا عشت تابيني وانا حي .

الموت ، لا اخاف من الموت ، اخاف من العذاب ، الموت هو التحرر من كل شيء .

● والله ؟

ـ انا مؤمن بالله ، مررت خلال شبابي بفترة كفر ، لكني مؤمن، لا امارس الطقوس وايماني هومع الله . والله دائما معي ، في الملمات اشعر بأن الله لم يتخل عني .

عن مجلة « الكرمل »

ولادة

اسميك ولادة ...
واحبو على اصابعي .. نحو القمر ..
لاذر في عينيه الرماديتين ..
اشلاء .. من كتب آهاتك .. فتتوهج
فاكتب اغرودة جديدة
اسمعت ولادتي
عن اشرعة .. تقود الرياح ؟
اسمعت .. عن بحار ما هدات ..
الا لتثور ؟.. ربما دمائي
ايه ولادتي ..
والزمن يفنى ليعيد ذاته
وانا افنى لاعيد ذاتك .. ربما العصافير
ايه ولادتي .. ويا ينبوع الحب .
ويا من تسمع همسات .. النرجس
واغنيات السكون ..
الم تسمعي صراخ قلبي .. ربما الموت
ايه ولادتي
ومن اعماق الليل
يعزف صوتك .. وتصدح موسيقاه
يضارع آهاتي .. وربما الناي
ايه ولادتي ..
سورني شوقا ..
وضميني .. زهرة
تنبت .. وتفنى
بعيدا عن عبث الفصول
ايه ولادتي
والذكرى ناقوس ..
يدق في شراييني ..
ويعزف اطروحة اخرى .. فلاه .. ربما الزمن .
ايه ولادتي ..
يا امراة ولدتني عيناها
عندما اغضب الرقاد جفناها
فيا ريح داعبي شفاها .. ربما القمر
ايه .. وايه .. ايها الحبيب .
القي عصا الترحال ..
القي عباءك .. الريفي
وتدثر بالشمس ... ربما القمر
واصل القمر .. حبوا
وتحترق اصابعي .. نزفا
كلما شابت السماء ..
فابتسمت ولادتي ..
ربما فرحا ..
وربما دموعا ..
فبنتم .. وبنا ..

*

*

نسيم الحاج حسين

سلمية ـ سورية